

المنهج القرآنى للدعوة ومعرفة أحوال من تدعوهم

يتلخص منهج القرآن الكريم فى الدعوة إلى الله تعالى فى قول الله سبحانه وتعالى ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١) وواضح من الآيه الكريمة أن أسلوب الدعوة يتشكل على حسب أحوال الناس الذين ندعوهم: فالخاصه: لهم الأسلوب المحكم والبرهان القاطع والدليل الساطع (بالحكمة).

والعامه: لهم العظة التى يمكن أن تصل إلى مداركهم وتستوعبها عقولهم.

والمعارضون: لهم المناظرة الهادئة والمجادلة بالتي هى أحسن.

فلابد للدعاة من معرفة أحوال من يدعونهم وأنواعهم وما يحتاجون اليه من أسلوب ومن هداية وتوجيه لابد أن يكون الدعاة على بصيرة من الأمر فى كل شأن من الشئون حتى تكون دعوتهم ناجحة، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يخير الناس بأن الدعوة الى شهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له هى سبيله يدعو الى الله سبحانه وتعالى بها على بصيرة وبرهان ويقين وإيمان، ويدعو كل من اتبعه إلى ما دعا إليه الرسول ﷺ، قال الله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) كما دعا المنهج القرآنى إلى تتبع أحوال (السكان) وتدبر آيات الله تعالى فى جميع الأقطار والبلدان، ومعرفة احوال الأمم ودعا القرآن إلى السير والنظر فى الأرض لمعرفة تلك الأحوال. قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٣). ودعا الإسلام إلى الرحلات والتقلب فى البلاد ليزداد الإنسان علما ومعرفة، وبحثا وفائدة وليعلم سنن الله تعالى فى الأمم السابقة والبلاد المختلفة وما حدث لأهلها وسكانها. قال الله تعالى:

(١) سورة النحل ١٢٥.

(٢) سورة يوسف ١٠٨.

(٣) سورة الحج ٤٦.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ كما دعا القرآن الى معرفة أحوال سكان العالم القديم والحديث وما جرى للأمم السابقة والحضارات الماضية ، وماذا كان عاقبة هؤلاء الناس قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ (٢) ووجه رسول الله ﷺ أمته إلى الرحلة في طلب العلم والمعرفة ولقاء العلماء في أى مكان أو وطن في دنيا الله الواسعة فقال صلوات الله وسلامه عليه : (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة) (٣) وزيادة في دقة المنهج الإسلامى فى تسليح الدعاة تيزاد المعرفة ليتمكنوا من مخاطبة السكان فى أى مكان من الأرض دعا إلى تعلم اللغات الأخرى فأمر رسول الله ﷺ كاتبه زيد بن ثابت أن يتعلم السريانية فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أمرنى رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب يهود بالسريانية وقال : (إنى والله ما آمن يهود على كتابى). قال زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (فوالله ما مر بى نصف شهر حتى تعلمته وجدت فيه فكنيت أكتب إليهم واقراً له كتبهم) (٤) وهكذا نرى أن معرفة أحوال السكان ولغاتهم أمر ضرورى للدعاة يجب أن يظطلعوا به وأن يتسلحوا بأسلحته حتى يؤد واجبهم الإسلامى.

عالمية الإسلام تستوجب على الدعاة دعوة جميع سكان الدنيا:

لكى يقوم الدعاة برسالتهم على أكمل وجه ، لابد أن يلتموا بأنواع الثقافات والعلوم من حولهم ، ليتمكنوا من معرفة أحوال العالم ، والأقطار التى تحيط بهم ، فإن الإسلام دين عالمى لا تقتصر دعوته على زمان دون زمان ولا على مكان دون مكان ، وإنما هو دين عالمى

(١) سورة آل عمران ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) سورة غافر ٢١ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه البخارى .

للناس كافة وللعرب والعجم والإنس والجن. وقد استهدف الإسلام تعارف الناس بعضهم لبعض وجعل هذا التعارف هو الغاية من خلقهم شعوبا وقبائل، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١) ولقد كانت الرسائل السابقة لرسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، يختص كل رسول بدعوة قومه، فاذا جاء غيره إلى هؤلاء القوم نسخ اللاحق دعوة السابق، اللهم الا القدر المشترك بين الرسائل وهو عبادة الله وحده واجتناب ما دونه من الباطل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٢) ولما كانت الأمم السابقة تختلف أحوالهم وأوضاعهم فقد تباينت الرسائل بتغاير الأحوال، وكان لكل أمه منهاج، كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾^(٣) ووضح القرآن الكريم أن الرسل السابقين كان كل رسول منهم مرسلًا إلى قومه خاصة، فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(٤) وقال سبحانه في شأن هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾^(٥) وقال الله تعالى في شأن صالح: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾^(٦) وقال تعالى في شأن شعيب: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾^(٧) وقال سبحانه في شأن عيسى عليهم جميعا صلوات الله وسلامه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(٨) وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد وضح أن كل رسول من الرسل السابقين كان يرسل إلى قومه

(١) سورة الحجرات ١٣.

(٢) سورة النحل ٣٦.

(٣) سورة المائدة ٤٨.

(٤) سورة هود ٢٥.

(٥) سورة هود ٥٠.

(٦) سورة هود ٦١.

(٧) سورة هود ٨٤.

(٨) سورة الصف ٦.

خاصة، حتى بلغت الإنسانية نضجها فجاءت الرسالة العامه الخالدة والرسول الخاتم الذى لا رسول بعده ولا نبي، فرسالته عامه لكل الأجناس والألوان، خالدة إلى قيام الساعة. وكان لتلك الشريعة العامة الخالدة ما يكفل لها العموم والخلود حيث أكملها الله تعالى وأتمها، كما قال جل شأنه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١) وأكد القرآن الكريم عموم الرسالة وخلودها وأن رسول الله ﷺ مرسل إلى الناس كافة، فقال جل شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣) كما أشار سبحانه إلى أن الكتاب الذى جاء به هذا الرسول الخاتم ﷺ له صفة العموم والخلود أيضا فقال: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤) وإذا كان الإسلام دينا عالميا، وكانت هذه الأمة حاملة لهذا الدين، وقد نزل القرآن الكريم بلغتها العربية فما الواجب على الأمة الإسلامية إذن؟ لايمارى أحد ولا يختلف اثنان فى أن واجب هذه الأمة أن تحمل دعوة الإسلام إلى جميع من على ظهر الأرض وأن تبلغه إلى الناس كافة أن تبلغه إلى العالم بجميع أقطاره وأجناسه ولغاته... وإذا تقاعست عن دورها ورسالتها فى تبليغ الإسلام إلى كل القاطنين فى قارات العالم، فقد خانت الأمانة التى ائتمنها الله سبحانه وتعالى عليها. إن الاستعمار نجح فى نشر أباطليه، حين مكن لها بإقضاء لغة القرآن والسنة وهى اللغة العربية، وأهملها، فأصبحت بلاد مسلمة كثيرة، ومسلمون فى بلاد غير عربية لا يتكلمون إلا اللغتين: الإنجليزية، والفرنسية، ولم يستطع المسلمون فى تلك البلاد أن يققوا على تعاليم الإسلام إلا عن طريق ما يكتبه لهم المستشرقون من إفك وباطل. وواجبنا نحن العرب الذين حملنا كتاب الله ودعوة الإسلام ونزل القرآن بلغتنا واجبنا أن نحمل الإسلام بتعاليمه الصحيحة إلى كل

(١) سورة المائدة ٣.

(٢) سورة سبأ ٢٨.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٤) سورة القلم ٥٢.

قارات العالم وجميع بلاد الله على ظهر الأرض، حتى نحقق خبرتنا التي وصفنا
الله تعالى بها في قوله جل شأنه: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾^(١).

□□□

(١) سورة آل عمران ١١٠.

دعوة الإسلام إلى الوحدة

الوحدة :

هى اتحاد الدول أو البلاد والأفراد والجماعات فى سائر أمور حياتهم ومعاشهم، وسيرتهم، وغايتهم، وبموجب هذه الوحدة يصبح الجميع شيئاً واحداً، أو أمة واحدة . يقال اتحد البلدان أى صارا بلداً واحداً، واتحدت الأشياء، صارت شيئاً واحداً. ويقال: وحد المتعدد: أى صيره واحداً، واتحد به: أى صار معه شيئاً واحداً. ولأهمية وحدة الأمة واجتماعها، رد الله سبحانه أنسابنا جميعاً منذ وجدت الخليقة وإلى يوم يبعثون إلى أصل واحد، فكلنا لآدم عليه السلام، وللبشرية جمعاء أب واحد وأم واحدة، خلقنا منهما «من ذكر وأنثى» قال جل شأنه: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١) ووضح سبحانه أن الأمة واحدة، وأن الرب واحد فقال جل شأنه: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾^(٢) ووضح رب العزة سبحانه وتعالى أن وحدة الأمة تستوجب عليها ألا يتفرقوا فى الدين وألا يختلفوا، فقال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾^(٣) والذين يفرقون دينهم ويختلفون شيعاً يعادى بعضهم بعضاً بعيدون عن الدين وعن الحق وعن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٤) والمتفرقون فريسة لأعدائهم يتغلبون عليهم

(١) سورة الحجرات ١٣.

(٢) سورة المؤمنون ٥٢.

(٣) سورة الشورى ١٣.

(٤) سورة الأنعام ١٥٩.

بسهوله وتتداعى عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، فيعتدى عليهم فى كل وطن، ويقاثلون فى كل مكان ويضعون فرقة بعد أخرى وجماعة بعد جماعة، كما يكونون فى فرقتهم فريسة للشيطان ولكل عدوان، عن سعيد بن المسيب رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ «الشيطان يهيم بالواحد والاثنين فإذا كانوا ثلاثة لم يهيم بهم»^(١).

ولخطر الفرقة وعدم الوحدة حذر الرسول صلوات الله وسلامه عليه منها أشد التحذير وبين أن الذى يخرج عن الطاعة ويفارق الجماعة يموت على ما كان عليه أهل الجاهلية من البعد عن الدين والوحدة فقال ﷺ: «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات مائة ميتة جاهلية»^(٢).

وواضح أن قوة المؤمنين فى وحدتهم وأن ضعفهم فى تفرقهم قال: ﷺ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»^(٣).

ومن أجل أن يكون المؤمنون قوة واحدة، لابد أن يتألفوا ويتعارفوا وأن تسرى روح التعاطف والتراحم فيما بينهم ليصبحوا كالجسد الواحد فيشعر كل منهم بشعور الآخر يفرح لفرحه ويحزن لحزنه ويشاركة فى السراء والضراء، ويخف لنجدته، ويبادر بمساعدته مصدقا لقول الرسول ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى له منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٤).

إن وحدة أمتنا واجبه وضرورية لمواجهة التحديات والتكتلات والأخطار التى تحدق بالأمة من كل جانب، ولو نظرنا إلى ماتملكه أمتنا الإسلامية والعربية من الثورة البشرية والمعدنية والبتترول، والعقول والحضارة والعلم، والزراعة إلى غير ذلك من أسباب القوة والمنعة، لو نظرنا إلى ماتملكه أمتنا من هذا كله لكننا على يقين بأننا حين نتوحد

(١) رواه مالك.

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه البخارى.

(٤) رواه البخارى.

ونتجمع نصبح أكبر قوة مؤثرة فى العالم كله .. ومن أجل هذا أدرك أعداء أمتنا، سر قوتنا، فراحوا يعملون على نشر مبدئهم : «فرق تسد» فكانت الحدود المصطنعة وكانت أساليب التفرقة المتعددة فى الثقافة وفى نشر مبادئ الاختلاف بين الأمة لإحداث شروخ بين فصائل الشباب المسلم، وبينهم وبين الدعاة والأنظمة، ومحاولة تضخيم بعض الاجتهادات والخلافات الفقهية . وإلى جانب هذا سعوا جاهدين فى فصل الأمة عن دينها ودستورها لأنه يوحدنا فقال أحدهم فى بعض المؤتمرات لا قرار لنا ما دام المصحف فى أيدي المسلمين.

الوحدة فى الإسلام

أهمية الوحدة : أن الوحدة أساس كل خير فى دنيا الناس وآخرتهم . وأن الفرقة أخطر الأفات التى تقضى على سعادة الناس، وترديهم فى مهاوى التهلكة، وتجرحهم إلى وحل المعصية وتظل تفرقهم شيعا حتى تجعلهم ينفصلون تماما عن الدين، وفى هذا المعنى يقول الحق تبارك ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(١) بل إن العلم نفسه حين لا يقوم على أساس الإخلاص، يؤدى بأصحابه إلى الخلاف واشتجار الأفكار ذلك لأن آفة العناد والتعصب، والبغضاء والحسد كل ذلك يستبد بالفكر الإنسانى، لهذا جاء القرآن الكريم فى دعوته إلى الوحدة يحرر عقيدتها وفكرها من آفة البغى والحسد، ويرسى فى النفوس دعائم التوحيد والتمسك بالشريعة القوية التى جاء بها الرسول ﷺ فقال تعالى ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾^(٢) أساس الوحدة: بين سبحانه أن أساس هذه الوحدة التى يدعو إليها الإسلام هى الدين الإسلامى والاعتصام به وبكتابه الذى هو سبب النجاة، وحذر سبحانه من التفرقة لما لها من الأخطار المحدقة والأضرار الفادحة،

(١) سورة الأنعام ١٥٩.

(٢) سورة آل عمران ١٩.

وذكر الله عباده من هذه الأمة، بما كان عليه الأوس والخزرج قديما، فقيل إنهما كانا أخوين لأبوين فوق بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب بينهم مائة وعشرين سنة حتى جاء الإسلام فأطفأ نارها وأخمد شرها، وجمعهم بالإسلام وألف بينهم برسوله صلوات الله وسلامه عليه.. وتدعيما لأصول تلك الوحدة وترسيخا لأساسها، يكلف الله تعالى هذه الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنتصارا للدين، وإقامة لوحده، ودفعاً لآفات الشر والفساد التي قد تثار حول حماه، أو ترتكب في الوطن الإسلامي ويضرب لنا القرآن الكريم المثل بمن قبلنا حين اختلفوا بعد أن جاءتهم البينات فكان لهم الوعيد الشديد. عن تلك الملامح كلها تحدث القرآن الكريم حديثا شافيا، هاديا للتي هي أقوم. فقال الله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١) وقد وجه الرسول ﷺ أمته إلى أساس الوحدة: وهو الأعتصام بحبل الله، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا: فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتمدوا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم.. ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال»^(٢) ولا شك أن حبل الله وهو دينه وكتابه يجمع معاني العهد بين الخلق وخالقهم والأمان لمن تمسك به، والصلة بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، فمن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ

(١) سورة آل عمران ١٠٣، ١٠٥.

(٢) رواه مسلم.

إِلَى الظُّلْمَتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١﴾ وقد جاء في الحديث السابق التحذير من التفرقة، في قوله: ﴿وَلَا تَفْرُقُوا﴾ بعد الأمر بالاعتصام، لبيان أن من اعتصم بحبل الله فهو بعيد عن التنازع بعيد عن التفرقة، أما الإعراض عنه، والتماس الاعتصام بغيره ففيه الضلال .. ومن التمس الهدى في غيره أضله الله " وقد أشار القرآن الكريم إلى تأكيد هذا المعنى في قوله تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَذَرُوا فَنَفْسُلَاكُمْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٣).

وهكذا نجد الآيات، بعد أن بين سبحانه أن الدين واحد والشريعة واحدة وأن الأمة واحدة تتفق على الإيمان والتوحيد في العبادة، وأشار بعد هذا إلى حال بعض الأمم في مخالفة عصا الطاعة، فتقطعوا أحزاباً مختلفة..

وفيما رواه البخارى، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات * مات ميتة جاهلية»

وفى موطن آخر، أعلن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعده عن مخالف الجماعة الذى لم يف لها بعهد، وراح يفرق بين الصفوف، ويضرب البر والفاجر.. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها، لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفى بعهد ذى عهدا فليس منى ولست منه» (٤) ويقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۗ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٥).

العبادات تطبيق عملي للوحدة: والإسلام فى حرصه الشديد على تقوية أركان

(١) سورة البقرة ٢٥٧.

(٢) سورة الأنفال ٤٦.

(٣) سورة المؤمنون ٥٢ - ٥٣.

(٤) رواه مسلم.

(٥) سورة النساء ١١٥.

الأمة الإسلامية وتضافر قواها جعل لعبادتها زيادة في الفضل والأجر إذا كانت في جماعة تعويدا لهم على الاتحاد، وغرسا لأصوله وروحه فيهم فجعل لصلاة الجماعة من الثواب والفضل ما يزيد على صلاة المنفرد، وصلاة الجماعة إذ شرعها الإسلام جعل فيها روح الوحدة اليومية خمس مرات كل يوم وكما هو الشأن في صلاة العيدين من كل عام وفيهما يكون الإجتماع أكبر، كما شرع أوسع اجتماع ممكن وأكبر جماعة يمكن أن تضم أكبر عدد من المسلمين من مختلف الأقطار الإسلامية وعلى شتى الألوان والأجناس وذلك في فريضة الحج إلى بيت الله الحرام وفي عبادة الصيام والزكاة تطبيق عملي للوحدة .

نهاية الفرقة: هذا ومن خالف الرسول ﷺ فيما جاء به، واتبع غير ما عليه المؤمنون من العقيدة والعمل، يدعه الله ويتخلى عنه ويوليه ما تولى ذلك في دنياه وأما في الآخرة فيصله جهنم وساءت مصيرا، وفي هذا المعنى يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١) والمتصفح لتاريخ الأمم والشعوب يرى أنه ما أستطاعت أمة من أهل السلب والنهب والسطو والظلم أن تتمكن من غيرها إلا بعد أن تمكنت من تمزيق وحدة غيرها، ومحاولة بث الفرقة والخلاف وتلك هي سياسة الاستعمار، وما الغزو الصليبي أو الصهيونية عنا ببعيد فقد كانت أسلحة التفرقة أقوى من أسلحة الميدان، وكانت عناصر التفرقة أضر من ضربات السنان. لهذا كله فنحن نهيب بالمسلمين والعرب في شتى الأقطار الإسلامية والعربية أن يجمعوا أمرهم وأن يلتقوا على كلمة سواء وأن يدركوا قيمة الهدى النبوي في قول الرسول صلى الله عليه وسلم «يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار» فإلى وحدة قوية متماسكة البنیان، وصف واحد كالبنیان المرصوص يشد بعضه بعضا وإلى تعارف وتآلف تتضافر فيه القوى أما وشعوبا كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢).

(١) سورة النساء ١١٥ .

(٢) سورة الحجرات ١٣ .

واجب المسلمين فى توحيد موقفهم تجاه التحديات المعاصرة

لقد وحد الله الأمة الإسلامية ، بتلك العقيدة التى تدعوها إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، وبتلك العبادات التى تتمثل فيها وحدة صفوفها فى الصلاة خمس مرات كل يوم . وفى الزكاة التى تتوحد فيها مشاعر المسلمين فى تعاونهم مع إخوانهم المحتاجين ، بما شرعه الله تعالى فى أموالهم من حق معلوم للسائل والمحروم . وفى الصيام الذى يوحدهم حيث يمتنعون عن الطعام والشراب فى وقت واحد ويطعمون ويشربون عند المغرب فى وقت واحد ..

وفى الحج إلى بيت الله الحرام الذى يتلاقى فيه الناس من كل فج عميق ويجتمعون بزى واحد وفى وقت واحد يلبون إلهما واحدا لا شريك له ، ويتدارسون فى مؤتمر الحج العالمى قضاياهم ومشاكلهم فجاءت كل تشريعات الإسلام توحيد بين جميع المسلمين أفرادا وجماعات وأما وشعوبا ، وجعل الله الغاية من خلقهم من ذكر وأنثى ، ومن جعلهم شعوبا وقبائل أن يتعارفوا ، قال سبحانه : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾^(١) .. وقال سبحانه أمرا بالوحدة : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾^(٢) . ولنلق الضوء - أولا - على حقائق الإسلام فى منهجه الربانى حتى نرى ونوقن أنها حقائق وتشريعات ، توحيد ولا تفرق ...

حقائق التشريع الإسلامى توحيد ولا تفرق

موقف الإسلام من الاجتهادات الصحيحة :

إن الإسلام هو دين العلم والمعرفة ، يدعو أتباعه إلى المزيد من العلم والثقافة ، بل أمر الله تعالى صفوة خلقه ، وخاتم رسله بأن يطلب منه المزيد من العلم ، وأن يدعو بذلك :

(١) سورة الحجرات ١٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٣ .

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(١) وهو الدين العالى الذى جاء بالدعوة العامة فى الزمان وفى المكان، وبعث بدستوره السماوى الخالد خاتم رسل الله ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ولعموم الدعوة، وخلودها إلى أن يقوم الناس لرب العالمين اتسم دستورها السماوى وهو القرآن الكريم بالعموم والخلود فنزل تبياناً لكل شىء: ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢). ولعموم الدعوة وخلودها تكفل الله بحفظ دستورها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣) فحفظه رب العزة سبحانه وتعالى فى الصدور وفى السطور.

ولعموم الدعوة وخلودها أرسل لها رسولا هو رحمة الله للعالمين لم تختص دعوته بقوم دون قوم ولا بزمان دون زمان كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

ولعموم الدعوة وخلودها صان الله تشريعها السماوى من أى دخيل أو مدسوس، فكما تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم تكفل سبحانه بحفظ كل حقيقى وصحيح من الحديث النبوى، ليكون بيانا للقرآن: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾^(٤).

فقيض الله لحفظ السنة النبوية المطهرة رجلا أمناء عرفوا بالعدالة وبالضبط والورع وقمه الذكاء فصانوا السنة النبوية المطهرة من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين....

ولعموم الدعوة وخلودها كانت حقائق التشريع فيها توحدها ولا تفرق وتدعوا إلى التمسك بالوحي الإلهى من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وفى دائرة هذا الوحي المعصوم كان الاجتهاد فى الأمور التى لم يرد فيها نص وكان التفكير الإسلامى من أهل العلم المتخصصين... ولعموم الدعوة وخلودها كان منهاجها الربانى يتسم بالحكمة

(١) سورة طه ١١٤.

(٢) سورة الأنعام ٩٠.

(٣) سورة الحجر ٩.

(٤) سورة القيامة ١٧، ١٨.

والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فلم ينتشر بالقوة ولا بالسيف فقد قال الله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(١) وقال سبحانه ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾^(٢) وقال جل شأنه ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾^(٣).... وحين يكون المجتهدون - فى أمور الدين - أهلا لهذا الاجتهاد وتتعدد الآراء فإن الإسلام لا يحجر على رأى، ولا يصادر فكرا، ما دام صحيحا وما دام صاحبه من أهل الإجتهد، فقد كان رسول الله ﷺ يقر الاجتهاد وتعدد الآراء، تأكيدا لسماحة الإسلام ويسره، وما كان يعنف أحدا، فقد روى أن النبى ﷺ قال - يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة»، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق فقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيها وقال بعضهم: بل نصلى لم يرد منا ذلك فذكر ذلك للنبى ﷺ، فلم يعنف أحدا منهم.

ومن أمثلة إقرار تعدد الآراء حين تكون صحيحة: نبأ الرجلين اللذين تيمما صعيدا طيبيا، وأثناء صلاتهما وجد الماء، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة، ولم يعد الثانى، فقال النبى صلى الله عليه وسلم للذى لم يعد «أصبت السنة» وقال لمن أعاد «لك الأجر مرتين». بل كان ينفرد أحيانا بعض الصحابة باجتهد فى مسألة ما من المسائل أو حال من الأحوال التى تعرض له، وقد يرى البعض اجتهاد هذا الصحابى غريبا أو مستبعدا، ولكن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه حين يرد إليه الأمر يبين لهم الحق فيه، فحين يرى فى هذا التصرف أو الاجتهاد وجها من وجوه سماحة الإسلام يقره ولا يرفضه، ولا يعنف صاحبه، ولا يتشدد، يقول عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أحتلمت فى ليلة باردة، فى غزوة ذات السلاسل، فأشفتت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابى الصبح، فذكروا ذلك للنبى ﷺ، فقال يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذى حدث، ويقول

(١) سورة البقرة ٢٥٦.

(٢) سورة ق: ٤٥.

الله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^(١) «فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا»^(٢) وهكذا نرى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يقر الإجتهد الصحيح ويقبل تعدد الآراء ما دام ذلك في إطار الحق والصواب، وما دام ذلك فيما يرد فيه نص، ولم يصادم أية من كتاب الله تعالى، ولا حديثا صحيحا من أحاديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه... بل إن علماء الحديث يعدون إقرار الرسول ﷺ لعمل أحد الصحابة نوعا من أنواع السنة النبوية، والحديث الشريف، لأنهم يعرفونه بأنه ما أضيف إلى رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة. وعبر عصور الإسلام الزاهرة، ما كان سلف هذه الأمة - حين تتعدد آراؤهم - يلزم أحدهم الآخر برأيه، ولا يكره أحد على شيء، فقد روى أن الإمام أبا حنيفة النعمان رحمه الله تعالى أنه قال: هذا الذي نحن فيه رأى لا نجبر أحدا عليه، ولا نقول: يجب على أحد قبوله كراهية، فمن كان عنده شيء أحسن منه فليأت به.

موقف الإسلام من الآراء التي لا تكون صحيحة

وأما موقف الإسلام من الآراء التي لا تكون صحيحة، فإنه ينكرها ولا يقرها بل لا يقر - ابتداء - أحد على القيام بالاجتهد أو الإفتاء أو الرأي في دين الله إلا إذا كان مزودا بعلوم الاجتهد والإفتاء من التفسير وعلوم القرآن والقراءات وأسباب النزول والحديث وأسباب الورود والناسخ والمنسوخ والفقه والنحو والصرف وغير ذلك من العلوم... ويأمر الله تعالى من لا علم لهم أن يسألوا العلماء المتخصصين وأهل الذكر العارفين، فقال سبحانه: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) وحذر الإسلام من اتباع آراء من لا علم لهم، لأنهم يضلون ويضلون كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الصدور ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير

(١) سورة النساء ٢٩.

(٢) رواه أبو داود والحاكم.

(٣) سورة النحل ٤٣.

علم فضلوا وأصلوا»^(١).. وإن من لا علم له حين يفتى فى دين الله أحدا يضلّه ولا يهديه ، ويعرض من يفتيه إلى الهلاك ، عن جابر رضي الله عنه قال : خرجنا فى سفر ، فأصاب رجلا منا حجر فى رأسه ، ثم احتلم فسأل أصحابه : هل تجدون لى رخصة فى التيمم؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة ، وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات.. فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخبر بذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام : «قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإن شفاء العى السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة ، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده.» فى قوله صلى الله عليه وسلم : «قتلوه قتلهم الله» ما يفيد اعتبار الذين أفتوه خطأ فأوردوه موارد الموت بمثابة القتلة لأخيهم حين أفتوه خطأ بغير علم... ومن ذلك أيضا ما رواه أسامة بن زيد قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية ، فصبحنا الحركات من جهينة ، فأدركت رجلا فقال : لا إله إلا الله ، فطعنته ، فوقع فى نفسى من ذلك ، فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قلت : يا رسول الله إنما قالها خوفا من السلاح قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أن لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. ومع الاختلاف فى رأى ، فإن الأمر لا يصل إلى حد أن يكفر أحد أحدا ولا أن يحكم أحد على المخطيء بالفسق أو الابتداع ، لأنه لا يمكن لأحد أن يدخل قلوب الناس ، أو أن يسيطر عليها ، فلا يعلم ما فى القلوب إلا علام الغيوب ، ولا يسيطر عليها إلا الله سبحانه وتعالى الذى خلقها.

□□□

(١) رواه البخارى.

لا تعصب في اجتهادات الأئمة

لقد كان لأئمتنا رحمهم الله تعالى جهودهم التي تذكر فتشكر في مجال الاجتهاد وكانت لهم آراؤهم المتعددة، والتي قد يختلف بعضهم مع الآخر، ولكنهم مع هذا لم يتعصبوا، ولم يلزم أحدهم الآخر برأيه . فقد كانت هناك أسباب عديدة لإختلاف وجهات النظر من بينها : ألا يكون الحديث قد بلغ بعضهم، أو يكون بلغه ولكنه لم يثبت عنده، لأن أحد رجال الإسناد مجهول أو متهم أو سىء الحفظ، أو يعتقد ضعف الحديث بإجتهاد قد خالفه فيه غيره، أو يكون الحديث قد بلغه وثبت عنده ولكنه نسيه . ومن أسباب الاختلاف أيضا، ما يرجع إلى بعض القواعد الأصولية كأن يأخذ بعضهم مثلا ببعض تلك القواعد الأصولية : (كالمصالح المرسلة أو سد الذرائع أو الاستحسان أو الاستصحاب أو العرف) ولا يأخذ البعض بهذه القواعد... ومع اختلافهم في بعض الأحكام، إلا أنهم لم يتعصبوا لآرائهم لأنها لم تكن اختلافات على الأصول بل في الفروع، كاختلافهم في قراءة البسمة وعدم قراءتها، وفي الجهر بها أو الإسرار، ولم يلزموا أحدا بآرائهم ولم يمنع اختلافهم هذا أن يصلى بعضهم خلف بعض.

فنرى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، يصلى في مسجد الإمام أبي حنيفة قريبا من مقبرته، فلم يقنت في صلاة الصبح، مع أن القنوت عند الإمام الشافعي سنة، فلما قيل له في ذلك، أجاب قائلا: أخالفه وأنا في حضرته ؟ وعندما أراد الخليفة المنصور أن يلزم الناس بالموطأ قال الإمام مالك : «يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم... فدع الناس وما اختار كل بلد منهم لأنفسهم».. فقال الخليفة: وفقك الله يا أبا عبد الله.

ومن احتياط أئمتنا وتواضعهم ما روى عن الإمام مالك رحمه الله أنه سئل عن ثمان وأربعين مسأله، فقال في اثنتين وثلاثين منها: «لا أدري».

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه «لا أدري» «نصف العلم» فلا يصح لمن لم يؤت فقها في الدين، واستعدادا في الاجتهاد أن يتجرأ على القول في دين الله بغير علم، فأجرأ الناس

على الفتوى أجرؤهم على النار، وعلى عامة الناس ألا يسألوا في دين الله تعالى إلا من كان عالماً متخصصاً، كما قال الله تعالى: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهكذا نهج سلفنا من أئمة المسلمين منهج التثبت في دين الله وعدم التعصب لرأى دون رأى أو اجتهاد دون اجتهاد، ما دام لم يصادم نصاً من كتاب الله سبحانه وتعالى أو حديثاً صحيحاً من سنة رسول الله صلوات الله صلواته وسلامه عليه.

دعوة الإسلام إلى توحيد موقف المسلمين تجاه التحديات المعاصرة

إن حقائق الإسلام وتشريعاته، توحيد المسلمين، ولا تفرقهم وإن اجتهادات الأئمة وتعدد الآراء واختلافها - أحياناً - إنما كان في الفروع لا في الأصول... ولم يمنع الاختلاف من وحدتهم وتضامنهم ولم يكن - يوماً - مدعاة للتعصب لرأى دون الآخر... ولما كان للتشريع الإسلامى هذا المنهج... فإن من الطبيعى أن نقدر دعوته لتوحيد موقف المسلمين فى كل أمورهم الدنيوية، وفى كل خطاهم وحياتهم، وخاصة تجاه التحديات المعاصرة التى يتعرضون لها.

لقد وضع القرآن الكريم وحدة هذه الأمة ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾^(١). وفى دعوة الإسلام لتوحيد موقف المسلمين تجاه التحديات يحذر القرآن الأمة الإسلامية من أهم تلك التحديات التى يحاول أعداؤها أن ينشروها بينهم وهى التى تتمثل فى:-

الخلافات بين المسلمين :

والخلافات أكبر تحد وأخطر معول هدام يقضى على هذه الأمة، ومن أجل ذلك نرى الاستعمار قبل أن يغادر بعض الدول التى تحررت ترك حدوداً مصطنعة وترك حدوداً تمثل تنازعا واختلافات بين الدول حتى لا تتحد الأمة وحتى تظل فى خلافات سياسية

(١) سورة المؤمنون ٥٢.

ودولية فيما بينها... وإلى جانب الاختلاف على الحدود، راح أعداؤنا يضحون بالخلافات الفقهية التي جرت بين العلماء فى بعض المسائل الفرعية، ففى جو الخلاف تضعف الأمة، ويتغلب عليها عدوها، وبهذه الخلافات فى الأمور الدينية استطاعوا أن يحدثوا شروخا بين فصائل الشباب المسلم ولا شىء أقسى وأخطر من الاختلاف فى الدين، إنه اختلاف يتهدد دنيا الإنسان بالأخطار، ويتهدد آخرته كذلك، ولذا اعتبره القرآن خروجا عن حظيرة الإسلام ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(١).

والذين يشغلهم الخلاف يهدرون حياتهم دون طائل، ويضيعون أعمارهم من غير فائدة. ومن بين تلك التحديات ما ينهض به أعداء هذه الأمة من محاولة حصرها فى موقف المدافع، لا فى موقع المنطلق لنشر دعوته، المهاجم بها لكل الأباطيل، وبهذا المخطط الخبيث بث أعداؤنا كثيرا من الشبهات التى تقع تحت حصر ليجعلوا المسلمين فى موقف المدافع عنها وليشغلهم بها، فانتشرت دعاوى وشبهات حول المرأة فى الإسلام وكون الرجل يأخذ ضعفها فى الميراث، وشبهات أخرى حول تعدد الزوجات، وحول الطلاق، وانتشار الإسلام بالسيف أو بالقوة وكلها شبهات زائفة ولا أساس لها من الصحة، وتعاليم الإسلام ذاتها تحمل الحكم التشريعية العليا، والأسرار الإلهية التى تحمل سعادة البشر وتحمل العدالة والحق والخير فى كل تشريع إلهى محكم... وليس معنى هذا ألا نرد على تلك الشبهات، بل المراد أن نرد عليها بالقيام بنشر الإسلام وإبراز فضائله ومحاسنه وتشريعاته السمحة التى كانت من أهم الأسباب فى نشر الإسلام واعتناق الكثيرين له عن اقتناع ومحبه.

وهناك تحديات كثيرة عسكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية وصحية وثقافية... وتتمثل التحديات العسكرية فى الاستعمار وغزوه لكثير من البلاد والدول والأقليات الإسلامية. وتظهر التحديات السياسية فى محاولة نشر المنظمات السياسية التى تفرق

(١) سورة الأنعام ١٥٩.

الأمة فى تناحر، وخلافات لاتنتهى. وتظهر التحديات الاجتماعية، فى نشر التعامل فى المجتمع بتلك التقاليد الوافدة فى الأسرة وفى البيئة وفى الزى وغير ذلك من المجالات الاجتماعية. وتتضح التحديات الاقتصادية فى نشر التعامل بالربا ومحاولة تسميته بغير اسمه، ومحاولة استنادة الدول الإسلامية ووقوعها غريقة بالديون التى تضيع معها هيبته، ويهتز معها قراها.

وأما التحديات الصحية: ففى نشر الخمر وتداولها والمخدرات والسموم البيضاء وغيرها من المواد التى تقضى على صحتها وعلى عقل كل فرد من أفراد هذه الأمة. وأما التحديات الثقافية: فتظهر فى الغزو الفكرى الذى يمثل أخطر هذه التحديات، والذى يعمل على تغريب هذه الأمة وتغيير رسالتها التى تقوم بها، وبإيقاف المد الإسلامى إلى الخارج وبضره من الداخل. وفى محيط هذه التحديات المتعددة، والمحيطه بالأمة من كل جانب تصاب الأمة بالوهن، وتوشك الأمم أن تتداعى عليها بسبب ضعفها وتسبب الخلافات التى تفرق فيها، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ حين قال «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال حب الدنيا، وكراهية الموت»^(١).

وفى مواجهة تلك التحديات، لابد لنا من التمسك :

أولا: بالعقيدة الإسلامية، وهى عقيدة التوحيد التى نؤمن فيها بالله ربا وبالإسلام ديننا وبسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا، ونؤمن فيها بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، يتطابق الإيمان مع العمل.. والتمسك بالإسلام عقيدة يستوجب التمسك به تشريعا ومعاملة وسلوكا وأخلاقا والتمسك بالعقيدة الإسلامية عقيدة التوحيد، يجعل من الأمة وحدة واحدة لا تختلف ولا تتفرق بل تعتصم بحبل ربها، كما قال

(١) رواه أحمد وأبو داود.

جل شأنه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ والتمسك بعقيدة التوحيد يجمع الناس ويوحدهم فلا يخرج أحد عن الطاعة ولا يفارق الجماعة: قال ﷺ: «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات * مات ميتة جاهلية»^(١).

ثانيا: أن نتمسك بالقرآن ونشر تعاليمه ومدراسته، وتطبيق ما جاء به من هداية ومنهج رباني يهدى إلى أقوم السبل ولأهمية القرآن الكريم في توحيد الأمة، وفي إمدادها بالقوة الإيمانية الكبرى، أدرك أعداؤها ما يمثله القرآن من خطر عليهم فقال المستر (غلاستون) وزير بريطانيا الأول وكبير أعمدة الاستعمار في الشرق الأوسط: «ما دام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق بل ولا أن، تكون هي نفسها في مأمن». وقال «سيمون»: «إن الوحدة الإسلامية التي تجمع آمال الشعوب السم، وتعتبر عن أمانهم هي التي تساعدهم على رفض السيطرة الأوروبية والتخلص منها».

الثالث: لا بد من تكوين وحدة إسلامية بين جميع المسلمين، وحين يكون للمسلمين - على الأقل - موقف إسلامي فإنه لن يكون لتلك التحديات سبيل علينا، بل تصبح الأمة الإسلامية أكبر الدول والأمم وأقواها وأعزها. إن هذه الوحدة المنشودة هي التي دعا إليها الإسلام وأكد الدعوة إليها ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢).

ودعا الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى توحيد المسلمين ومعاونة بعضهم فقال صلوات الله وسلامه عليه «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ثم شبك أصابعه»^(٣) وإن على المجتمعات والدول الإسلامية أن توحد موقفها وتتعاون لإنقاذ الأقليات الإسلامية، ومواجهة التحديات العالمية وعلى جميع الدول الإسلامية أن تمد يد العون لكل البلاد المحتاجة والفقيرة وتساعد الأقليات، وتخلصها مما يديره لها أعداء الإسلام، وحتى لا يكون لتيارات الفساد والشر سبيل لها... ويوم أن تتحد بلاد العالم الإسلامي

(١) رواه البخارى.

(٢) سورة الحجرات ١٣.

(٣) سورة البخارى.

وتتوحد على هدف منشود تحقق به خيريتها، وتنصر دينها، يوم أن ينصرها الله نصرًا مؤزرا، ويمكن لها في الأرض لتقييم شريعة الله في الأرض، مؤكدة صلتها به، ومقوية روابطها بالمجتمع، ومدافعة عن دين ربها، آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر.

﴿وَلْيَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنِ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ
أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ لِلَّهِ عِاقِبَةُ
الْأُمُورِ ﴿١﴾

□□□

(١) سورة الحج ٤٠، ٤١.

دعوة الإسلام إلى الوقاية من الأمراض
ومن مرض (الإيدز)

يجب أن تتوافر جهود المصلحين الدينية والطبية والثقافية والاجتماعية وغيرها، بحيث تتكامل جميع الجهود المبذولة في مجال الوقاية من هذا الخطر الداهم الذي يتمثل في مرض الإيدز وفي غيره من الأمراض التي تنقل جنسيا، كما يجب أن تتضافر هذه الجهود أيضا في مكافحة هذه الأمراض ومقاومتها وبإدء ذى بدء ننبه إلى أمر هام دعا إليه الإسلام وهو :

ضرورة الوقاية من هذه الأمراض ومن غيرها، وحماية الأبدان من الإصابه بأى مرض منها والحرص على الصحة والحفاظ عليها تجنبنا لوقوع المرض .

دعوة الإسلام إلى الوقاية من الأمراض

لقد دعا الإسلام إلى الوقاية من الأمراض قبل وقوعها، بحيث لا ينتظر الناس حتى تقع ثم يبحثون عن العلاج. بل عليهم أن يحافظوا على أنفسهم وبيئتهم من الوقوع في هذه المخاطر، فإن الوقاية خير من العلاج.

فنرى التعاليم الإسلامية حين أباحت الأكل والشرب نهت عن الإسراف فقال الله تعالى ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ حُدُوًا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١) ... وقد اشتملت هذه الآيه الكريمة على ما فيه صحة البدن كله. أوجز الله ذلك في كلمتين، حيث أرشد الخلق إلى ما يقيم البدن من الأكل والشرب عوضا عما تحلل منه، وأن يكون ذلك بقدر ما ينتفع به البدن كما وكيفا، وبحيث لا يجاوز ذلك القدر المطلوب، وإلا كان إسرافا، وكلا الأمرين :

عدم الأكل والشرب أو الإسراف فيه ضرر. وصحة الأبدان من النعم الإلهية التي يجب الحفاظ عليها وحمايتها.

عن عبد الله بن محصن الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ : «من أصبح معافى فى جسده آمنا فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا» (٢).

(١) سورة الأعراف ٣١.

(٢) رواه الترمذى.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ)^(١).

وعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال : (أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم : أن يقال له : ألم نصح لك جسمك؟ ونروك من الماء البارد)^(٢).

وعن أبى بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «سلوا الله اليقين والمعافاة ، فما أوتى أحد بعد اليقين خيرا من العافية»^(٣).

وهكذا ما ترك الإسلام جانبا من جوانب المحافظة على الصحة إلا دعا إليه .
ومن توجيهات الإسلام فى الحفاظ على الصحة والوقاية من الأمراض النهى عن دخول أرض بها مرض الطاعون ، والنهى عن الخروج منها إذا نزل المرض بها ، حفاظا على الناس ووقاية لهم ، حتى لا ينتشر الوباء بينهم بل يحصر فى نطاقه الذى هو فيه فحسب .

تحريم الشذوذ الجنسى وإتيان النساء فى الحيض

اكتشف العلم الحديث والبحث الطبى أن من أبرز وأخطر الأسباب لانتشار عدوى هذا المرض الحديث (الإيدز) الذى يتميز بعدم المناعة ، أو فقدانها فى جسم الإنسان «الشذوذ الجنسى» بأشكاله وإتيان النساء فى الحيض . وهى أمور حرمها الإسلام تحريما حاسما ، وحذر منها أيما تحذير وجاء النهى عنها واضحا فى كتاب الله تعالى ، حيث قال جل شأنه : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ^(٢٢٢) نِسَاؤَكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَوْا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ .

(١) رواه البخارى

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه أحمد .

(٤) الآيات رقم ٢٢٢ - ٢٢٣ ، سورة البقرة .

وقال جل شأنه :

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ قال تعالى ﴿٢٩﴾ ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ بُصُورٌ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (٢).

وهكذا نبه القرآن الكريم عن تحريم إتيان النساء في المحيض وتحريم الشذوذ الجنسي لما يترتب على ذلك من الأضرار الصحية، ويأتى العلم الحديث اليوم فيكشف مرض الإيدز، وهو فقدان المناعة في جسم الإنسان الذى ترتفع معدلات العدوى به بين المصابين بالشذوذ الجنسي ومن يأتون النساء في أوقات المحيض أو في غير المكان الذى شرع كأن يأتى الرجل زوجته فى دبرها، أو الذين يمارسون الشذوذ الجنسي فى الرجال وقد أثبتت الأبحاث الطبية أن أكثر من سبعين فى المائة من هؤلاء الشواذ يصابون بعدوى الإيدز فى حالة وجود الفيروس لدى أحد الطرفين . ولقد قيل إن من مهيئات ضعف المناعة وجود مادة البروستجلاندين فى المنى، والذى يمكن أن تسبب قدرا من نقص المناعة بتأثيرها على الخلايا الليمفاوية التى تحتل أن تحوى إفرازات الرحم مواد مضادة لها . أما إفراغ المنى فى المهبل فلا ينتج عنه إضعاف المناعة . وبهذا تتبين حكمة تحريم الشذوذ الجنسي وتحريم إتيان الزوجة فى دبرها(٣).

وقد سبق الإسلام هذه الاكتشافات العلمية الحديثة لهذه الأمراض المترتبة على إتيان المرأة وقت المحيض أو فى غير المكان الذى أباحه الله أو بسبب الشذوذ الجنسي بين الرجال، حيث حرم ذلك كله منذ أكثر من أربعة عشر قرنا كما وضح من الآيات

(١) سورة العنكبوت ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) سورة النمل ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) مدخل إلى الطب الإسلامى الدكتور على مطاوع.

السابقة ، ومن التوجيه النبوى الحكيم فقد قال رسول الله ﷺ : (من أتى حائضا أو امرأة فى دبرها ، أو كاهنا فصدقه ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)^(١) .
وقال صلوات الله وسلامه عليه :

(«لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلا أو امرأة فى الدبر»)^(٢)

أسباب الإصابة بمرض الإيدز

تحدثنا من قبل عن طريقة نقل العدوى من خلال الاتصال الجنسى بين شخصين أحدهما يحمل العدوى وقلنا أن اللواط والزنا وغيرهما من صور الانحراف الجنسى من أهم مداخل العدوى إلى جسم الإنسان السليم .
ولقد أثبت العلم الآن أن هناك مداخل أخرى للعدوى عن طريق نقل الدم أو مشتقاته الملوثة بأدوات تحمل الفيروس ، أو وخز الجلد أو تخدشه بأدوات ملوثة ، وذلك هو ما يفعله مدمنوا المخدرات الذين يتشاركون فى تعاطى المخدرات الوريدية بمحاقن أو إبر ملوثة .

ولقد أمر الإسلام أتباعه بالوقاية من العدوى حتى لا تصيبهم الأمراض ، عن جابر بن عبد الله أنه كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم ، فأرسل إليه النبى ﷺ : (ارجع فقد بايعناك)^(٣) أى أنه ﷺ لم يجعل الرجل المريض يأتى ويباع ومعروف أن فى البيعة مخالطة وملامسة حيث يضع المبايع يده فى يد من يبايعه فأمره الرسول ﷺ أن يرجع وأخبره أنه قد بايعه دون أن يحضر وقاية من انتشار المرض ، وخوفا من حدوث العدوى . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : («فر من المجذوم كما تفر من الأسد»)^(٤) فكما

(١) رواه أحمد والترمذى .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه البخارى .

يخاف الشخص من افتراس الأسد له أو إيذاء الحيوان للإنسان فيفر من الأسد حفاظاً على حياته ، فكذلك الحال بالنسبة للمجذوم يأمر الرسول ﷺ بأن يفر السليم من المجذوم مخافة العدوى كما يفر من الأسد مخافة الأذى. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: («لا يوردن ممرض على مصح»)^(١). وفي هذه النصوص دعوة إلى الوقاية، والبعد عن العدوى وأسبابها. بيد أن هناك بعض الأحاديث التي قد يتبادر إلى بعض الأذهان من ظاهر ألفاظها ما يفيد انتفاء العدوى، ولكنها عند التمعن وإيضاح معانيها لا تعارض مع النهى عن العدوى، وأسبابها. ومن ذلك ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لاعدوى ولا طيرة)^(٢).. ومنها ما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ أخذ بيد رجل مجذوم فأدخلها معه فى القصعة وقال: («كل باسم الله، ثقة بالله، وتوكلا عليه»)^(٣). نقول: لاتعارض بين هذه الأحاديث وبين ما سبق من التحذير من العدوى، فالأمر باجتناّب المجذوم على الاستحباب، وأما الأكل معه ففعله لبيان الجواز (وكان أهل الجاهلية يعتقدون أن الأمراض المعدية تعدى بطبعها من غير إضافة إلى الله سبحانه، فأبطل النبي ﷺ اعتقادهم ذلك وأكل مع المجذوم ليبين لهم أن الله سبحانه هو الذى يمرض ويشفى. ونهى عن القرب منه ليتبين لهم أن هذا من الأسباب التى جعلها الله مفضية إلى مسبباتها. ففى نهيه إثبات الأسباب، وفى فعله بيان أنها لا تستقل بشيء، بل الرب سبحانه إن شاء سلبها قواها، فلا تؤثر شيئاً، وإن شاء أبقى عليها قواها فأثرت^(٤) فالعدوى لا تؤثر بذاتها بل يفعل الله سبحانه وتعالى . وإذا كان الله تعالى قد حرم الوطء فى الفرج تجنبا للأذى عند المحيض فما بالناس بما هو أشد أذى من ذلك وأخطر كاللواط وغيره من صور الشذوذ الجنسى، وفيها زيادة الضرر والمفسدة؟ لاشك إنه أكد فى التحريم والنهى

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه الترمذى.

(٤) زاد المعاد لابن القيم.

عنه . وقال الله تعالى - فى شأن تحريم ماعدا الزوجة وملك اليمين الذى كان معروفا قديما :
﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾^(١) . ولم يقتصر الإسلام على تحريم
المحرمات التى نهى عنها فحسب بل وضح أن فيها أذى حتى يبتعد الناس عنها ،
ويقفوا على ما فيها من أضرار ، وما يترتب عليها من أمراض وآلام . كما أمرنا الإسلام بأن
نجنب أنفسنا أخطار التعرض لأسباب المهالك ، فقد جاء فى كتاب الله العزيز :
﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ صدق الله العظيم^(٢) .

تنبؤ الرسول صلى الله عليه وسلم بالأمراض الحديثة

يقول علماء الطب والعلم الحديث : إن أمراضا حديثة اكتشفت فى الفترة الأخيرة ،
ولم تكن معروفة أو موجودة فى الزمن الماضى ومنها على سبيل المثال لا الحصر مرض
الإيدز . وإذا نظرنا إلى الهدى النبوى الشريف وجدنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام
يقول : ((لم تظهر الفاحشة فى قوم قط إلا ظهر فيهم الطاعون ، والأوجاع التى لم تكن
فى أسلافهم))^(٣) ... ولنذكر الحديث بأكمله كما ذكره الإمام الهيثمى : عن عطاء بن أبى
رباح قال : كنا مع ابن عمر ، فجاء فتى من أهل البصرة فسأله عن شىء فقال : سأخبرك
عن ذلك قال : كنت عند رسول الله ﷺ عاشر عشرة فى مسجد رسول الله ﷺ ، أبو بكر
وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود وحديفة وأبو سعيد الخدرى ورجل آخر سماه وأنا . فجاء
فتى من الأنصار ، فسلم على رسول الله ﷺ ثم جلس فقال : يا رسول الله أى المؤمنين
أفضل؟ قال «أحسنهم خلقا» قال : أى المؤمنين أكيس؟ قال : (أكثرهم للموت ذكرا
وأكثرهم له استعدادا قبل أن ينزل بهم - أو قال ينزل به - أولئك الأكياس) ثم سكت ،

(١) سورة المؤمنون ٥ - ٧ .

(٢) سورة البقرة ١٩٥ .

(٣) مجمع الزوائد ج ٥ ص ٣١٧ وذكر الهيثمى أنه رواه البزار ورجاله ثقات ، وروى ابن ماجه بعضه .

وأقبل النبي ﷺ فقال: (لم تظهر الفاحشة فى قوم قط إلا ظهر فىهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ولا نقصوا المكىال والميزان إلا أخذوا بالسنيين وشدة المؤونه وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السما ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوهم فأخذ بعض ما كان فى أيديهم، ولم يحكم أئمتهم بغير كتاب الله الا جعل الله بأسهم بينهم... فظهر الأمراض التى لم تكن موجودة من قبل هى نتيجة لتمرد الخلق على تعاليم الخالق وخروجهم على فطرة الإيمان التى فطرهم الله تعالى عليها، وعصيانهم وظهور الفاحشة فىهم.. فإنه يترتب على ظهور الفاحشة بكل أنواعها من زنا أو شذوذ جنسى أو إتيان للمرأة فى غير المكان الذى أباحه الله أو إتيان الرجال للرجال أو النساء للنساء أو الزنا العادى الذى هو إتيان الرجل للنساء فإن فيه انتشار للأمراض والأوبئة التى تظهر فى كل زمان ومكان كلما ظهرت الفاحشة أعادنا الله منها.



وجوب تكامل الجهود للوقاية

يجب على الأمة الإسلامية وجوبا عينيا يفرضه عليها دينها أن تقوم بمقاومة هذه الأمراض وأسبابها بدءا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر الوعي الدينى مع الوعي الصحى جنبا إلى جنب، فإن الناس منهم من يردعه الوازع الدينى ومنهم من يردعه الوازع الصحى ومنهم من يحتاج إلى الأمرين معا. وحتى يتكامل الوعي الدينى مع الوعي الصحى لبيان حكم الشرع فى ارتكاب أسباب هذه الأمراض وتلك الأوبئة وبيان الآثار الصحية، لابد من تضافر الجهود الإعلامية لنشر الوعي الدينى والصحى.. ولكى ينتشر انتشارا حقيقيا مؤثرا لابد أن يأتى بطرق متعددة منها ما هو اختياري كالذى تقوم به وسائل الإعلام ومنها ما هو واجب وإلزامى، كأن يدخل الوعي الصحى والدينى بهذه الأمراض وأسبابها والدعوة إلى الوقاية منها فى المناهج الدراسية والتعليمية فى المدارس والمعاهد والجامعات والأكاديميات، وأن تكون المناهج ملائمة لكل الأعمار والمستويات وبالأسلوب الدينى الصحى الواضح الذى لا تعقيد فيه ولا غموض.

ومما سبق يتضح أنه لتكامل الجهود المبذولة للوقاية، لابد أن تتضافر جهود علماء الإسلام مع جهود أساتذة الطب والوقاية، مع جهود وسائل الإعلام وجهود القائمين على المؤسسات التعليمية الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعة فى جميع مراحل التعليم.

أما المواقع الأخرى غير التعليمية كالمصانع والشركات والمتاجر والمزارع وغير ذلك من القطاعات الأخرى التى قد يعمل فيها من لم يمر بمرحلة من مراحل التعليم السابقة، فلا بد أن يكون بها قطاع أو هيئة تقوم على سبيل الإلزام بنشر هذا الوعي الدينى والصحى. وعلى المصلحين والدعاة وعلماء الإسلام واجب التوعية الدينية فى هذا المضمار بصفة خاصة لأنهم أهم هذه القطاعات كلها وأكثر التخصصات تأثيرا فى الدعوى إلى الأخلاق الفاضلة التى تبقى الأمم ببقاء أخلاقها، وتفنى بفنائها، وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

نظام الحسبة فى الإسلام

الحسبة كلمة تدل على تقديم العمل لله تعالى، فيقولها احتساب الأمر عند الله أى قدمه ونوى به وجه الله تعالى.

وهى وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبرز نظام الحسبه منذ فجر الإسلام بمتابعة التجارة من بيع وشراء، ومراقبة الأسواق والمكاييل والموازين وقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وسلم يراقب الأسواق بنفسه، عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى صَبْرَةَ طَعَامَ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعَهُ بِلَبْلَاءٍ فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ فَقَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ؟» ثُمَّ قَالَ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

ومن ذلك أيضا ما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قام فى الناس خطيبا فقال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» وإنكم تضعونها فى غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده»^(١).

وبرز نظام الحسبه واضحا فى عهد الإسلام الأولى عندما اتسعت المعاملات والتجارات، قال الإمام الماوردى: «لما اتسع نطاق التجارة وأصبحت مورد الأهل الأعواز من كافة البلاد يتناولون فيها حاجتهم من المال وقع غش فاحش فى التجارة وصارت الصيارف من اليهود وغيرهم يعطون مالهم بالربا على أن يعاد عليهم المثل فى نهاية العام مثلين وأكثر منه، فأقام الرشيد محتسبا، ليكون بالأسواق والفحص والأوزان والمكاييل من الغش وينظر فى معاملات التجارة».

(١) رواه الترمذى.

وظائف الحسبة

وللحسبة وظائف منها:

(١) القيام بالدعوة إلى إصلاح الأمة دينيا وخلقيا واجتماعيا واقتصاديا وقيام كل صاحب تخصص بالإصلاح في مجال تخصصه ويمنع أن يخوض أحد في غير ما تأهل فيه فليس لغير العلماء الأكفاء أن يدلوا برأيهم في أحكام الشريعة ولا لغير الأطباء الماهرين أن يتكلموا في مسائل الطب وهكذا...

(٢) ومن وظائف الحسبة كذلك رعاية شئون الحياة التي قد لا تصل إلى ولي الأمر أو لا يستطيع أن يمر على جميع الناس بشأنها فيقوم المحتسب بمتابعتها ومراقبة الكيل والميزان والعقود والاحتكار والغش بين الناس في المعاملات، ومراقبة الأداب العامة.

(٣) ومن وظائف الحسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعروف: هو كل ما عرف من الشرع حسنه وأمر به من اعتقاد أو قول أو عمل، والمنكر: هو كل ما عرف ما الشرع قبحه ونهى عنه من اعتقاد أو قول أو عمل، ولا يكون التصدى لتغيير المنكر إلا بعد التأكد من وجود المنكر ورؤيته بالعين، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(١) فقال في الحديث: «من رأى منكم منكرا..» ولم يقل من علم أو نحو ذلك حتى لا يأخذ الناس بعضهم بالظن وبمجرد الشائعات. ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «أمور عامة» لاتخفى على عامة الناس كفريضة الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك فالدعوة من عامة الناس إليها لا بأس بها ومن ذلك النهي عن الفاحشة والعدوان على الأنفس والأموال والأعراض. ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «أمور خاصة» دقيقة ولها أحكامها الشرعية التي لا يصح أن يتصدى لها إلا العلماء والفقهاء والمتخصصون في أمور الشريعة الغراء. فيشترط فيمن يتصدى لذلك أن يكون عالما بالأحكام ودقائقها، وأن

(١) رواه مسلم.

يكون عالماً بأن دعوته مثمرة وأن الناس سيستجيبون أو يغلب على ظنه ذلك وبحيث لا يؤدي إنكاره للمنكر إلى ارتكاب منكر أشد منه بالأمان على حياته بسبب ذلك مثلاً. وكما يكون ذلك بين الأفراد بعضهم بعض يكون أيضاً بين الأمم والدول والمجتمعات.

(٤) ومن وظائف الحسبة متابعة الأمور العامة ومرافق الدولة كالمستشفيات والمدارس والمساجد والأسواق والأبنيه ليرى مدى توافر الإخلاص في العمل فيها وإتقانها

(٥) إقامة مشروعات البر والخير والسعي لمساعدة المحتاجين والمنكوبين والفقراء وأصحاب الحاجات.

- (٦) الإصلاح بين الناس، ونشر الفضائل والنهي عن الرذائل.
- (٧) إرشاد السائرين، وهداية الضالين والحائرين والنصح للناس أجمعين.
- (٨) مساعدة ولاة الأمور في استتباب الأمن والاستقرار، والسلام والرخاء.
- (٩) السعي على مصالح الناس وقضاء حوائجهم ورفع مطالبهم لأولى الأمر.

شروط المحتسب

يشترط في المحتسب أن يكون مؤمناً، عالماً بحكم الشرع قادراً على ذلك. واشترط الإمام الماوردي أن يكون عدلاً عاملاً بما يأمر به منتهياً عن ما ينهى عنه، لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾^(١) كما يشترط أن يحرص على درء المفسدة فهي مقدمة على جلب المصلحة، فإن كانت المصلحة أعظم من المفسدة، وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أما إذا ترتب على جلب المصلحة أو على الأمر والنهي عن المنكر حدوث مفسدة أكبر من المصلحة فلا يجب عليه بل أحياناً يحرم عليه ذلك كأن كان يوقن أنه إن تصدى لهذا الأمر قتل مثلاً. وعليه أن يرتب الأمور حسب أولويتها فيبدأ بالأهم فالمهم، فيبدأ بأصول الإيمان ثم الفرائض ثم ترك المحرمات ثم أداء النوافل والسنن ثم ترك المكروهات وهكذا ففي وصية رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «إنك تأتي أقوماً أهل كتاب

(١) سورة الصف ٢ - ٣.

فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم وإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(١) ومن هذه الشروط: ألا يتجسس على الناس للنهي عن ذلك، وقد جاء في «الأحكام السلطانية» للماوردي: «ليس للمحتسب أن يبحث عما لم يظهر من المحرمات» كما يشترط أن يكون رفيقا بمن يتصدى لهم غير غليظ وأن يكون مخلصا صابرا متواضعا متثبتا مما يتناوله بالأمر أو النهي، عارفا بأحوال الناس، قادرا على مهمته، واسع الصدر لقبول آراء المجتهدين في المسائل فلا يتعصب لرأى دون رأى ولا لمذهب دون مذهب وأن يكون عفيفا متنزها عما فى أيدى الناس وعن أموالهم، ورعا فى كل ما يقدم إليه من هدايا من أرباب الصناعات وأصحاب الأعمال، لأن الهدية المقنعة نوع من الرشوة وقال سبحانه ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

حكم الحسبة

يرى جمهور الفقهاء أن الحسبة واجبة على كل مسلم قادر، لقول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٣) ويرى بعض العلماء: أن الحسبة وإن صحت من كل إنسان مسلم تتحقق فيه شروط المحتسب إلا أنها لا تكون واجبه إلا بتفويض من ولى الأمر، لما فيها من ولاية، ولما قد يؤدي إليه أمرها حين لا تكون عن تفويض من ولى الأمر من فوضى وفتنه وإضرابات. والذى نراه ونرجحه هو أن القائم بالأمر أو النهى إن كان مجرد ناصح بالحكمة فى الأمور

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) سورة البقرة ١٨٨.

(٣) سورة التوبة ٧١.

التى لا يحتاج فيها إلى إذن ولا تحتاج إلى تخصص علمى فيجوز أما فوق ذلك من الأمور الأخرى والأحكام الشرعية وما يحتاج إلى القضاء ونحو ذلك فينبغى أن يكون عن طريق والى الحسبة الذى عين من قبل ولى الأمر.

ولاية الحسبة

وكانت ولاية الحسبة غير ثابتة على جهة معينة فى الدولة فكانت متصلة من قبل بولاية القضاء وذلك عندما كانت السلطة مع الخلافة. أما عندما انفصل السلطان عن الخلافة أفردت الحسبة بولاية مستقلة.

قال ابن خلدون: «إن صاحب هذه الوظيفة هو القائم على الأحكام التى يتنزه عنها القاضى لعمومها وسهولة أغراضها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء، وقد كانت فى كثير من الدول الإسلامية فى مصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخله فى عموم ولاية القاضى يولى فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاما فى أمور السياسة تدرجت فى وظائف الملك وانفردت بالولاية...».

الحسبة فى عصرنا الحاضر

وحيث رأينا فيما سبق كيف كانت ولاية الحسبة ووظائف المحتسب، فإننا بالقياس إلى ما جد فى عصرنا الحاضر، نرى أن أعمال الحسبة موزعة على حسب مسئوليات أجهزة الدولة ومؤسساتها:

- فنرى مثلا القائمين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الدعاة والعلماء ورجال الأزهر الشريف كل فى تخصصه فى الدعوة والفقة والتوحيد والتفسير والحديث ونحو ذلك لهم أجهزتهم المعنية فى الدولة (الأزهر ووزارة الأوقاف) وهذا التنظيم القائم أحكم وأدق من أن يترك الأمر لعامة الناس يخوض فيه كل من هب ودب عن غير تخصص وعن غير كفاءة علمية مقننة ومحكمة ومرخص لها بهذا العمل الهام، فى أمور الأحكام.
- ونرى أجهزة ووزارات أخرى تأخذ أيضا اختصاصات وصلاحيات المحتسب مثل وزارة التموين والتجارة، والصحة والتعليم، والعمل، والشئون الاجتماعية وهكذا..
- ونرى أيضا جهازا آخر يراقب ويحاسب الأجهزة الحكومية وهو: الجهاز المركزى

للمحاسبات - ونرى جهازا أعلى يراقب الجميع ويقوم بدور الرقابة ، ودور التشريع وهو المجلس النيابى «مجلس الشعب» .
وهذا التوزيع لمهام «الحسبة» كان ضروريا لكثرة الناس وكثرة المصالح وتعددتها وتطورها مما استدعى تطور الأجهزة القائمة بهذه المهمة .

□□□

صناعة الشائعات المغرضه وعقوبة الذين يرددونها

إن الإسلام هو دين الصدق والأمانة، والحق والعدل، لا يقبل من أتباعه أن يكونوا كذابين، ولا خوانين، ولا مبطلين ولا ظالمين، ولكن بعض الذين لهم غرض، وفي قلوبهم مرض، لا يقبلون أن يعيشوا في مناخ الأمن النفسى، والصدق والحق، بل فى مناخ ملبد بغيوم البلبلة والشائعات، فإذا لم يجدوا شيئاً يساعدهم على ذلك، اختلقوا الأكاذيب، وصنعوا الشائعات، وأحدثوا فى المجتمع فتناً هوجاء، وتلك طبيعة خبيثة فى بعض الناس، وهؤلاء هم الذين حذر الله سبحانه وتعالى منهم، ووصفهم بأنهم الشياطين، لأن من الشياطين شياطين الإنس وشياطين الجن ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ وترى شياطين الإنس لا يرضون نجاح الناس ولا إخلاصهم وإنما يغيظهم نجاح الناجحين وإخلاص العاملين فيحاولون أن يهيلوا عليهم التراب، وأن يفتروا عليهم الكذب بالكلمة المنقولة بين الناس حيناً والكلمة المكتوبة حيناً آخر، ولا يفعلون ذلك إلا وهم غير مؤمنين بآيات الله، كما قال رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

وقد بين رسول الله ﷺ عقوبتهم عن أبى الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «من ذكر امرءاً بشيء ليس فيه ليعيبه به حبسه الله فى نار جهنم حتى تأتى بنفاد ما قال به»^(٢) وفى روايه «أبما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة وهو منها برىء يشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه يوم القيامة فى النار حتى يأتى بنفاد ما قال»
ولقد دعا الإسلام إلى صيانه حرمة الأعراض كما دعا إلى صيانة حرمة النفس والمال وقال صلوات الله وسلامه عليه فى حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا».

(١) سورة النحل: الآية ١٠٥.

(٢) رواه الطبرانى.

وعبر كل العصور ومنذ كان تاريخ الخليقة ولكل نبى عدو من المجرمين، وللعلماء والمصلحين والرواد من ميراث النبوة ما يجعلهم يواجهون الأذى دون التأثير به، لأن لهم إيماناً راسخاً لا تزعجه أعاصير الشائعات المزورة، ولا رياح الفتنة الهوجاء التى يفجرها أهل الباطل وأصحاب الأهواء الخسيسه والرغبات الظالمة والفكر المغشوش. هذا وإن جريمة الزور والبهتان تأتى - فى شناعتها - بعد جريمة الشرك وعبادة الأوثان حيث قال سبحانه: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾^(١) ولقد وصل بأصحاب الشائعات الملققة والافتراءات المزورة أن كانوا ينالون من الرسول ﷺ وكان الله تعالى يكشفهم له ويقول له ﴿فَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾^(٢) ويأمره الله تعالى ألا يلتفت إليهم وألا يتأثر بهم ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٣) بل وصل بأصحاب القلوب المريضة ومن فقدوا الإيمان وضلوا ضلالاً مبيناً أنه لم يسلم من أذاهم وشائعاتهم وإفكهم أحد فهم أهل البهتان والمروجون للزور والمؤلفون لوقائع الكذب فنالوا من الله ورسوله والمؤمنين، ولذا بين الله تعالى جزاءهم على ذلك فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَتَبْنَا قَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾^(٤) فإذا كان إيذاء الأشرار لم يسلم منه النبى المرسل، ولا الإله الخالق، فكيف بنا نحن البشر! وصدق القائل:

والله لو صحب الإنسان جبريلا	لم يسلم المرء من «قال» ومن «قيلا»
قد قيل فى الله أقوال مصنفة	تتلى إذا رتل القرآن ترتيلا
كم قيل: إن له نجلا وصاحبة	زورا، ومينا وتكذيبا وتضليلا

(١) سورة الحج ٣٠.

(٢) سورة يس ٧٦.

(٣) سورة الأحزاب ٤٨.

(٤) سورة الأحزاب ٥٧، ٥٨.

إن كان قولهم فى الله ربهم فكيف لو قيل فىنا بعض ما قيل
إن الواجب على أمتنا أن تضرب على أيدى هؤلاء الإنهزاميين الملتمسين للبراءة
العيب الذين ينشرون قالة السوء بين الناس وعلى الصفحات المظلمة المسمومة ليهزوا
كيان الأمة ولينالوا من رموز الأمة العربية والإسلامية ومن رموز الإسلام فى وقت تداعى
فيه أهل الباطل على أمتنا . إننا كمظلومين والله يستجيب دعاء المظلوم ويرفع دعوته
فوق الغمام ويقول الرب (لأنصرك ولو بعد حين) كما يجيب دعاء المضر نضرع إلى
الله تعالى ونجار إليه .. اللهم عليك بمن آذنا، اللهم من أرادنا بسوء فاجعل تدميره فى
تدبيره واشغله بنفسه وانصرنا على القوم الظالمين ..
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

□□□

القدس مدينة السلام

الإسلام والقدس

لقد سجل القرآن الكريم، مكانة القدس، حين وضع أن الله سبحانه وتعالى أسرى بعبدته وحبيبه سيدنا محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، حيث قال جل شأنه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١).

وسمى بالمسجد الأقصى، لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة.

والمراد بالبركة المذكورة في الآية الكريمة، في قوله تعالى: (الذي باركنا حوله) هي البركة الحسية والمعنوية، فأما الحسية فهي ما أنعم الله تعالى به على تلك البقاع من الثمار، والزرع والأنهار، وأما المعنوية فهي ما اشتملت عليه من جوانب روحية ودينية، حيث كانت مهبط الصالحين، والأنبياء والمرسلين، ومسرى خاتم النبيين وقد دفن حول المسجد الأقصى كثير من الأنبياء والصالحين.

والمسجد الأقصى: هو أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى».

ومعنى هذا الحديث: أنه لايسافر أحد لمساجد للصلاة فيها إلا لهذه المساجد الثلاثة، لأنه لايسافر أصلاً إلا لها. وقد بنى المسجد الأقصى بعد المسجد الحرام بأربعين سنة، كما جاء في الحديث الصحيح: عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولاً؟ قال: المسجد الحرام.
قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهم؟ قال: أربعون سنة، وأينما أدركت الصلاة فصلني فهو مسجد.

(١) سورة الإسراء ١.

وللمسجد الأقصى مكانته الجليلة فى الإسلام، فهو أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين...

روى الطبرى فى تاريخه، عن قتاده قال: كانوا يصلون نحو بيت المقدس ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة وبعدما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا.

ومما يدل على فضل بيت المقدس ومكانته، أنه أرض المحشر والمنشر. وعن ميمونه مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: قلت: يارسول الله أفنتا فى بيت المقدس؟ قال: «أرض المحشر والمنشر» اتتوه فصلوا فيه، فإن الصلاة فيه كآلف صلاة فى غيره».

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أراد أن ينظر الى بقعة من الجنة فليُنظر إلى بيت المقدس».

وفى مدينة القدس عدد كبير من الصحابه والتابعين، منهم الصحابى الجليل عبادة بن الصامت وشداد بن أوس. فهو مهد النبوات والشرائع، والرسول الذين وجدوا هناك فى هذا العصر، ولقد كان المسجد الأقصى قبلة لهم، وهذا كله يمثل البركة الدينية التى أحاطت به. وأما البركة الدنيوية: فكثرة الأشجار والأنهار وطيب الأرض، وهذا مايرد بقوله تعالى: «الذى باركنا هوله».

وروى أن الذى أسس المسجد الأقصى هو يعقوب بن إسحق صلى الله عليه وسلم بعد بناء إبراهيم الكعبة، وقد قام سليمان عليه السلام بتجديده، وقد شكل ذلك، لأن بانى البيت الحرام إبراهيم عليه السلام وبانى المسجد الأقصى داود وابنه سليمان بعده، وبينهما مدة طويلة تزيد على الأربعين التى ذكرت فى الحديث المروى فى الصحيحين عن أبى ذر رضى الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع على الأرض؟ فقال المسجد الحرام، قلت: ثم أى؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: وكم بينهما؟ قال: «أربعون عاما ثم الأرض لك مسجد، فحيثما أدركت الصلاة فصل فيه فإن الفضل فيه».

وأجاب عن هذه الإشكال أبو جعفر الطحاوي فى شرح معانى الآثار: بأن الوضع غير البناء، والسؤال فى الحديث السابق عن مدة ما بين وضعهما لا عن مدة ما بين بنائهما فيحتمل أن يكون واضح الأقصى بعض الأنبياء قبل داوود وسليمان، ثم بنياه بعد ذلك. وللمسجد الأقصى ارتباط وثيق بعقيدتنا وله ذكريات عزيزة وغالية على الإسلام والمسلمين، فهو مقر للعبادة، ومهبط للوحى ومنتهى رحلة الإسراء وبداية رحلة المعراج.

وقد مر الرسول ﷺ فى رحلته إلى المسجد الأقصى بالبقعة المباركة التى كلم الله فيها موسى عليه السلام، وهى طور سيناء فصلى بها ركعتين. ومر بالبقعة المباركة التى ولد فيها عيسى عليه السلام، وهى: «بيت لحم» فصلى بها ركعتين، ثم وصل إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى جمع من الأنبياء والرسل فصلى بهم جميعا، ثم عرج به إلى السماء فرأى من آيات ربه الكبرى.

ولما عاد رسول الله ﷺ من هذه الرحلة المباركة، وأخبر قومه، كان منهم من صدق، ومنهم من كذب.

وذهب بعضهم إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وأخبروه، فما كان جوابه إلا أن قال لهم.

والله لئن كان قوله لقد صدق، قالوا: تصدقه على ذلك؟ قال: إنى أصدقه على أبعد من ذلك أصدقه على خبر السماء، وقد تمادى القوم فى لجاجهم وحوارهم، يسألون الرسول ﷺ فى تعنت عن بيت المقدس، ومنهم من قد كان قد رآه، وظنوا أنهم بهذة الأسئلة سيوقعون الرسول ﷺ فى حرج. ولكنه هو المؤيد من قبل ربه - وقد وصف لهم بيت المقدس وصفا كاملا فى غاية الدقة، وأخبرهم عن آياته، يقول ﷺ: " فجعلت أخبرهم عن آياته، فالتبس على بعض الشئ فجلى الله لى بيت المقدس ثم جعلت أنظر إليه دون دار عقيل، وأنعته لهم «فقالوا: أما النعت

فقد أصاب وكان ابو بكر الصديق رضي الله عنه - كلما وصف لهم الرسول صلی الله علیه و آله وصفا - يقول: صدقت أشهد أنك رسول الله ثم أخبرهم عن غيرهم، وعن أحمالها، وعن دقائق الملابس ووصفها أكمل وصف، وقال لهم تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس، وفيها فلان وفلان، يقدمها جمل أورق عليه غرتان محيطتنا، ومع وضوح الأدلة فقد لج القوم في عنادهم ولم يصدقوا تلك المعجزة الواضحة فقد طمس الله على أبصارهم وبصائرهم «ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور» وفي رحلة الإسراء والمعراج فرض الله سبحانه وتعالى الصلاة، وهي الصلة القوية بين العبد وربيه وكانت القبلة آنذاك هي صخرة بيت المقدس حيث امر الرسول صلی الله علیه و آله باستقبالها وكان بمكة يصلى فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر الرسول صلی الله علیه و آله إلى المدينة تعذر عليه أن يجمع بينهم، عندئذ أمره الله تعالى أن يتوجه إلى بيت المقدس واستمر على ذلك نحو ستة عشر شهرا. وكان يدعو ربه ويبتهل إليه أن تكون وجهته إلى الكعبة قبله إبراهيم عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجه إلى بيت الله الحرام، فخطب الناس وأعلمهم بذلك، وكان أول صلاة: صلاة العصر، وفي هذا يقول الله تعالى «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون».

وعن البراء رضي الله عنه أن رسول الله صلی الله علیه و آله صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال:

أشهد بالله لقد صليت مع النبي صلی الله علیه و آله قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي قد مات على القبلة قبل أن تحول رجلا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله: «وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم».

ومما يؤكد عاطفة المسلمين نحو القدس الشريف كواحد من أهم معالم الإسلام أنه قد

أسرى الله برسوله ﷺ إليه، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام دخل المسجد الأقصى وصلى فيه، ففي رواية أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

«.....» ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن» فقال جبريل: «أخذت الفطرة» وقال الإمام النووي رحمه الله: المراد بالفطرة هنا: الإسلام والاستقامة. وفي رواية ابن مسعود:.....» ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين ما بين قائم وراوع وساجد، ثم أذن مؤذن، فأقيمت الصلاة، فقمنا صفوفًا ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدي جبريل، فقدمني فصليت بهم.

وفى رواية أبي أمامة - عند الطبراني - ثم أقيمت الصلاة، فتدافعوا حتى قدموا محمد ﷺ.

فصلى إماما بالأنبياء جميعا في المسجد الأقصى. ولقد أطلع الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ في هذه الرحلة المباركة على نماذج لثواب الطائعين، وعقاب العاصيين. ومن هذه النماذج ما رآه من ثواب المجاهدين في سبيل الله: «مر على قوم يزرعون ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال لجبريل عليه السلام: ما هذا؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف الحسنه إلى سبعمائه ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خيرا الرازقين»

وفى هذا المشهد توضيح لمكانة الجهاد والمجاهدين، وفى هذا النموذج المحسوس لثوبه الجهاد، تجيش فى نفوسنا عواطف الإيمان، لتدفعنا لتطهير القدس الشريف واسترداده، وتطهير كل بقعة فى الوطن الإسلامى، ونجاهد من أجل إعادة الحق إلى أصحابه الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾^(١).

(١) سورة البقرة ١٩١.

وقد اختارت الإرادة الإلهية أن يكون الإسراء برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى ، وصلا للحاضر بالماضي ، وتقديرا لمنزلة هذه البقعة المباركة ، التي عاشت عمرا كبيرا تنتشر على ظهرها الهداية ، وتستقبل في رحابها النبوات... وظل بيت المقدس مهبط الوحي الإلهي سنين عديدة.

فلما عصى اليهود أمر ربهم ، وتنكروا لوحى السماء ، تحولت النبوة عنهم ، وانتقلت الى ذرية إسماعيل ، وتحولت بالتالى القيادة الروحية إلى خاتم الأنبياء والمسلمين . فانتقل الرسول ﷺ إلى هذه البقعة المباركة تقديرا لإخوانه السابقين من الأنبياء المرسلين ، وإعلانا عن اكباره لهم وللدِين الذى انتشر نوره وسناه فى هذه البقاع المباركة؟ لأن الرسول ﷺ والمؤمنين ، يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله ، كما قال الله سبحانه: ﴿ ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ ۗ ﴾ (١).

ولقد جمع الله تعالى له الرسل السابقين ، فاستقبلوه ، وصلى بهم إماما وطبق الله فى ليلة الإسراء والمعراج وفى رحاب المسجد الأقصى ذلك العهد والميثاق الذى أبرمه منذ القدم مع الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضا ويمهد بعضهم للبعث ، وأن يؤمنوا بمن سيرسله لهم وأن ينصروه ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ۖ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ ءِصْرِي ۗ قَالُوا ءَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا ۚ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۗ ﴾ (٨١) (٢).

وهكذا كانت إمامة الرسول ﷺ بالأنبياء ، والمرسلين فى هذا المكان المقدس إعلانا لختم رسالات السماء وأن رسالته خاتمة الرسالات ، ودستورها السماوى وهو القرآن كلمة

(١) سورة البقرة ٢٨٥.

(٢) سورة آل عمران ٨١.

السماء الأخيرة، وأنه ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين وصلاة رسول الله ﷺ بالأنبياء لا ينافيها كون الأنبياء كانوا قد ماتوا من قبل، لأن الذي أسرى هو الله الخالق القادر على كل شئ فهو القادر على تغيير بشرية الرسول ﷺ ليصلى بالأنبياء، وهو القادر على تغيير قانون برزخية الأنبياء السابقين ليصلى بهم.. فما أراد الله تعالى حدث، وبالكيفية التي أرادها رب العزة سبحانه وتعالى.

وفي هذا إعلان لعالمية الإسلام، وإعلان بأنه التشريع الخاتم والرسول الذي ختم الله به الأنبياء والمرسلين.

وأن حادث الإسراء والمعراج يضع في أعناق المسلمين في كل الأرض أمانة القدس الشريف، وأن التفريط فيه تفريط في دين الله وسيسأل الله تعالى المسلمين عن هذه الأمانة إن فرطوا في حقها أو تقاعسوا عن نصرتها وإعادتها.

فعلينا أن نوحد جهودنا، وألا نتفرق، لنكون بوحدتنا، قوة إسلامية لا يستهان بها، ولا تضعف في المطالبة بحقوقها فطريق الوحدة ومناشدة القوة، هو طريق الحفاظ على مقدساتنا التي هي جزء من عقيدتنا وديننا ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أن القدس مسرى خاتم الأنبياء، وبوابة الأرض إلى السماء، وأولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ولكم تعرض إلى العدوان والتخريب، فلماذا؟ وهو الموطن الإسلامي، ولو لا الصفة الإسلامية للقدس وفلسطين ما كانت لتعاني كل هذه المعاناة، «وما نقوموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله..» إلا أنها مسلمة تحتل وتكثر المستوطنات اليهودية بها يوماً بعد يوم؟! الآن شعبها مسلم يضطهد ويشرد ويتعرض للإبادة والتفكيك؟! هل أصبحت هذه سمة البلاد والشعوب الذين يتعرضون لتهاون النظام العالمي؟! فنرى أمثال المعاناة في البوسنة والهرسك والشيشان.. أقول: إن الجهاد فرض عين في الدفاع عن القدس، كما أنه فرض عين في الدفاع عن البوسنة والهرسك والشيشان وكل وطن إسلامي على ظهر الأرض.

وفرض الجهاد للدفاع عن الأوطان ليست مقصورة على ساكني هذه الأوطان المسلوبة

أو المنهوبة فحسب، بل إن فرضية الجهاد على جميع المسلمين في كل الأرض، ومن هنا فإن كل جهاد والحكم الشرعى الذى قرره الفقه الإسلامى أن أعداء الإسلام إذا دخلوا بلدا يقيم فيه المسلمون فيجب الخروج لقتالهم ولا يجب لأحد أن يتخلى عن هذا الواجب، قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾^(١) وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، إذا استنفرتم فانفروا» فإذا نادى الواجب المسلمين، لتحرير أوطانهم، ورفع العدوان عنها، واسترداد الحق، فإنه يجب عليهم أن يخفوا لتلبية هذا النداء وألا يتثاقلوا، قال الله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ءَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٢) وفى سبيل إقرار الحياه الأمنة المستقرة، ونشر الإسلام فى ربوع الأمة يجب علينا ألا نتفرق وألا نختلف، بل نتوحد فلا نتنازع ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(٣) «وأن نتجمع ولا نتفرق» وأعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا. والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.



(١) سورة التوبة ١٢٣.

(٢) سورة التوبة ٣٨.

(٣) سورة الأنفال ٤٦.

التوصيات

لقد تكررت المآسى فى القدس الشريف من جراء انتهاك السلطات الإسرائيلية لحقوق هذه المدينة وحقوق الفلسطينيين، حيث تعددت المجازر البشرية، والاستمرار فى زيادة المستوطنات اليهودية، كما تعرضت إلى حوادث الإحراق والعدوان على الأنافس والأموال، واستهانت إسرائيل بالشرائع السماوية والمقدسات الدينية والحقوق الإنسانية، وكانت لها ممارسات إرهابية فى المنطقة، باشرت من خلالها كل وسائل العدوان والعريضة! ولما كانت القدس لها منزلتها الأثيرة فى قلوب المسلمين والمسيحيين والعرب جميعا فهى مسرى رسول الله سيدنا محمد ﷺ، وأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وعاش فيها المسيح عليه السلام.. ولما كان السلام الشامل والدائم فى المنطقة رهنا بالتسوية ألعادلة والكاملة، واسترداد الحق إلى أهله ولما كانت القدس البلد الوحيد الذى عانى الأمرين وكان الشعب الفلسطينى أكبر من تحمل فى سبيل الدفاع عن وطنه من معاناة وقتل وتشريد وضياع فإنى أعرض التوصيات التالية :-

١ - تأكيد الدعوة إلى استمرار صمود المجاهدين من أبناء فلسطين، دفاعا عن الحق والشريعة ووقوف الدول العربية والإسلامية مع هذا الشعب المظلوم استردادا لحقه، وانتصارا للشريعة و الحق.

٢ - الدعوة إلى توحيد القوى العربية والإسلامية والإنسانية عامة المحبة للسلام والواقفة بجانب العدل والحق، فلا يضيع الحق إلا بضعف أهله، ولا قوة لنا إلا فى وحدتنا، استجابة لقول الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

٣ - تحريك الرأى العام الدولى.. بإظهار الحق ومنادة الضمير الإنسانى فى كل الأرض لمنصرة الحق ومناهضة الباطل والظلم.

٤ - مطالبة النظام العالمى بإيقاف الهجرة اليهودية، وإيقاف المستوطنات، ورد الحق لأهله حتى يسود السلام الدائم والشامل.

٥ - تضميد الجراح العربية والإسلامية بين الأشقاء العرب والمسلمين، حتى تتم وحدة الصف والهدف، وتقوى الأمة فى مواجهة التحديات.

٦ - مطالبة النظام العالمي ومجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة وجامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي بتحقيق القرارات التي سبق أن أبرمت مطالبة بحقوق القدس وفلسطين والشعب الفلسطيني.

٧ - دعوة الأمة أفرادا وجماعات وأما وشعوبا بتوثيق الصلة مع الله، وتأكيد تطبيق التعاليم الإسلامية التي فيها انتصار لدين الله مما يترتب عليه انتصارنا مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧) وقوله: ﴿وَلِيَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ (٢).

٨ - تشكيل لجنة دولية تمثل أهم الشخصيات الدولية الذين يمكن أن يتابعوا توصيات هذه الندوة، حتى تأخذ طريقها إلى العمل الجاد، ولا تبقى كغيرها من الندوات حبرا على ورق.

وبالله التوفيق" وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



(١) سورة محمد ٧.

(٢) سورة الحج ٤٠.

الدعوة إلى تزكية النفس

- * تزكية النفس الإنسانية.
- * بين الخوف والرجاء.
- * بين وازع الدين ووازع الضمير.
- * حقيقة الحياة.
- * إنما الدنيا لأربعة نفر.
- * مقاومة الإسلام للمخاوف و الأوهام.
- * من مسئوليات الإنسان المسلم.
- * الإنسان المسلم فى بوتقة الاختبارات.
- * تهذيب الإسلام للنفس الإنسانية.

تزكية النفس الإنسانية

إن تكوين الشخصية القويمة لا يستكمل ملامحة إلا بتزكية النفس وتنقية داخل الإنسان وأعماقه، قبل مظهره الخارجى. والإنسان الذى يعجز عن إصلاح نفسه التى بين جنبيه هو أكثر عجزاً عن إصلاح نفوس الآخرين والتأثير فيهم، وللنفس البشرية دوافعها فى السلوك وتأثيرها على الكيان الخارجى، ولها وساوسها المتحركة وهاجسها الشائكة. التى تدفع إلى الانحراف والسوء والفحشاء والمنكر ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾^(١) إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾.

و بالقرآن الكريم تتزكى النفوس، فلا تعوقها الفتن، ولا تعكر حياتها الضلالة فتنتهى بالهلاك، وقد أمر الله تعالى رسوله عليه السلام أن يذكر الناس بكتاب ربهم لئلا تبسل نفس وتهلك فقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾^(٢).

ولا يتأتى للنفوس تزكية فى غير البيئة الإسلامية الآمنة، المطبقة لشريعة الله، ففى رحابها تستقر النفس وتطمئن، فلا ترتاع من أحد يمكر بها، ولا ترتاب من نفوس من حولها، وكم زعم البعض أن فى بعض البيئات التى توغلت فى المدينة المجردة عن الإسلام رقة فى المعاملة و ملاحظة فى الأسلوب والمنظر فخدع فى النفوس وظن فيها الحسنى وليس الأمر كما زعم لأن صفاء النفس لا يتأتى من السطح الخارجى لحياة الناس ومعاملاتهم، وإنما مبعثة من داخل القلب وأعماق النفس الإنسانية، وليس فى غير الكتاب والسنة والإيمان الصحيح طريق للتزكية، وقد امتن الله تعالى على عبادة إذ أرسل لهم رسوله بكتاب قويم يزيكهم ويعلمهم فقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٣)

(١) سورة يوسف ٥٣.

(٢) سورة الأنعام ٧٠.

(٣) سورة الجمعة ٢.

ويتتبع الإسلام تزكية النفس في مسار الحياة فيدفعها إلى الخير، ويعمل على ترقيتها من أمارة بالسوء إلى نفس لوامة ثم إلى نفس مطمئنة. لقد وضح القرآن حقيقة النفس البشرية في ضعفها، وكيف تستهويها الفتنة بمظهرها الخلاب ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾^(١) لكن عندما يصحوا الضمير الديني و يتحرك وازع الدين يخاف الإنسان مقام ربه، وعندئذ ينهى نفسه الأمارة بالسوء فيحظى بالرحمة والجنة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فِإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(٢). وعندما ترتقى نفس الإنسان المسلم بالتزكية تلوم نفسها لا على ارتكاب الخطأ فحسب بل تلوم نفسها وإن اجتهدت في الإحسان. وبتلك النفس اللوامة ورد القسم في القرآن في قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^(٣).

و عندما ترتقى النفس بالتزكية و تطمئن بإيمانها و سلوكها تنتهي عما نهى الله و تأتمر بأمر الله، وحين تنتهي بها رحلة الحياة الدنيا تقبل على الله محبورة مستبشرة، ويقال لها: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾^(٤). و من رحمة الله بعباده أنه وضح لهم طريق الخير ليتبعوه و طريق الشر ليتروكه و ألهم كل نفس هذا الإحساس والبيان: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾^(٥)

و في مسار تزكية النفس يحرض الإسلام على تسليح النفس بذكر الله والوضوء والصلاة لينتصر على وساوس الشيطان و ينفذ غطاء الكسل و عوامل التثبيط. ففيما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال: "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة، عليك ليل طويل فارقد

(١) يوسف ٥٣.

(٢) سورة النازعات (٤١، ٤٠).

(٣) سورة القيامة (١، ٢).

(٤) سورة الفجر (٢٧، ٣٠).

(٥) سورة الشمس (٧، ١٠).

فإن استيقظ وذكر الله انحلت عقدة فإن توضع انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان^(١).

إن الكسل ظاهرة غير صحية في حياة المسلم لأن خبث النفس تحطيم للشخصية فبمنظاره القاتم يتطلع المرء إلى من حوله فيسئ بهم الظنون، وحيث تقع نظراته على محامدهم إذا بها في عينه مثالب. إنه لا يرى في الورود إلا الشوك، وانطباعاته عن دنيا الناس تأتي انعكاسا لما يتردد صداه في نفسه فهي عارية عن الخير والجمال فلا ترى في الوجوه خيرا ولا جمالا هذه النفس التي عنها الشاعر بقوله:

وترى الشوك في الورود و تعمي أن ترى فوقه الندى إكليلا
والذى نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئا جميلا

وما أحوج المجتمع الإنساني إلى تزكيه النفس وإلى التضرع إلى الله أن يحفظها في السر والعلانية في اليقظة وفي النوم كما كان سلفنا يضرعون إلى الله ليحفظها. روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر أنه أمر رجلا إذا أخذ مضجعه أن يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها».



(١) رواه البخارى.

بين الخوف والرجاء

يتشكل الوجدان الإسلامى المعتدل بين الخوف والرجاء حيث يتوازن بناء الشخصية فلا يؤدي به الرجاء إلى الإهمال ولا يؤدي به الخوف إلى اليأس: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١) وبين الخوف والرجاء يستيقظ الضمير الدينى محذرا لصاحبه من التردى فى مهاوى الفساد و التهلكة مرغبا له فى طريق الطاعة والنجاة، وبالرغبة والرهبنة تنمو فى الأعماق عواطف جياشة وأحاسيس صادقة مبعثها صحة العقيدة وقوة الصلة بالله وهذه الصلة الوثيقة هى التى تضىء على حياته الرجاء فى رحمة الله وفى الوقت نفسه تحذره من عذابه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾^(٢) والاتجاه إلى الله بالرغبة والرهبنة مع المسارعة فى الخيرات سبيل لفتح الأبواب وتحقيق الأمال لأنه لا يستقيم على ذلك إلا من صدقت نيته و صفت سيرته وأشرفت حياته بالإيمان. ولقد أخبر الله تعالى: عن زكريا عليه السلام حين طلب أن يهبه الله ولدا يكون نبيا من بعده فسارع هو وأهله فى الخيرات وفى الدعاء رغبا ورهبا، فأجاب الله دعاءهم وحقق رجاءهم، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^(٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾^(٤) فهذا نموذج عال يقدمه القرآن فيه تجلية لأثر الخوف والرجاء وما ينبغى أن يكون عليه المسلم فى دعائه واتجاهه إلى الله، وبين الخوف والرجاء دائرة إيمانية مشرقة تنطفىء فيها المخاوف النفسية وينبتق منها الأمن الروحي حيث يكف الإنسان نفسه عن كل ما يغضب الله خوفا منه ويسارع إلى مرضاته

(١) سورة يوسف (٨٧).

(٢) سورة الإسراء (٥٧).

(٣) سورة الأنبياء (٨٩، ٩٠).

رجاء رحمته وعندئذ يظل مستثمرا ثواب الله وعقابه وغفرانه وعذابه. ﴿نَجَّ عِبَادِي﴾
 أَفِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿١﴾ وقال تعالى: ﴿حَمَّ﴾
 تَزِيلُ الْكَنْبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا
 إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ مَّصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴿١﴾ وكما دعا القرآن إلى الخوف والرجاء ففي السنة الشريفة
 فيض غامر يستهدى به المسلم في حياته ويفتح أمامه باب الأمل والرجاء في رحمة الله
 فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال الله عز وجل: «سبقت رحمتي غضبي» وفيما روى أيضا
 عن عمر بن الخطاب أنه قال: " قدم على رسول الله ﷺ سبى فإذا امرأة من السبى ،
 تبكى إذ وجدت صبيا في السبى أخذته فألصقته بطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله
 ﷺ أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه
 فقال رسول الله ﷺ «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» وحتى لا يتكل الناس على الرحمة
 وجانب الرجاء نجد أن الرسول ﷺ يخبر عن وقوع العذاب من أمور قد يستهين البعض
 بها روى الإمام مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة
 حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض» وتؤكد السنة المشرفة
 حقيقة الخوف والرجاء ومدى ما عند الله من العقوبة و الرحمة حتى لا يتسرب الغرور
 أو اليأس إلى داخل النفس الإنسانية. روى مسلم بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ
 قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند
 الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»^(٣) وترسم السنة صورة كاملة الملامح لحياة الإنسان
 اليومية يكتنفها الخوف والرجاء في حركته وسكونه في يقظته و نومه ففيما رواه مسلم
 عن سعد بن عبيدة: حدثني البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أخذت مضجعا

(١) سورة الحجر ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة غافر ١ ، ٣ .

(٣) رواه مسلم .

فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل اللهم إنى أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابتك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت»^(١) وليس في عنصر الخوف من الله ما يدعى أعداء الإسلام فإن الخوف صمام أمن وعصمة من الزلل. والتربية في أمس الحاجة إليه. ثم إنه ليس خوفاً من مخلوق وإنما خوف من الله. يقول السلف: ينبغي تغليب الخوف على الرجاء ما دام الإنسان يغدو ويروح في الدنيا، فإذا خرج منها حسن به الرجاء على الخوف عند الله، ويرى البعض، إذا غلب الأمن من عذاب الله فالخوف أفضل وإذا غلب اليأس فالرجاء أفضل. ما أروع ما قاله ابن القيم في هذا: القلب في يد الله عز وجل بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس و الجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل طائر وكاسر.



(١) رواه مسلم.

بين وازع الدين ووازع الضمير

وللوازع الدينى طابعه الواضح فى حياة الأفراد والجماعات والأمم والشعوب، فـصوت الحق ينبعث منه مدويا فى الكيان الإنسانى له تأثيره القوى، وله عمقه وفاعليته فى الواقع العملى للحياة والأحياء، ولقد تعددت الأشكال التطبيقية فى سائر المجتمعات البشرية واختلفت الأساليب، وتنوعت المناهج وتضاربت الآراء لدى المجتمعات التى فقدت عنصر الوازع الدينى ولم تتخذ الإسلام منهجا للحياة، حتى وإن كان أفراد المجتمع مسلمين فهناك فرق واسع بين جماعة إسلامية أخذت الإسلام عقيدة وسلوكا وتطبيقا وبين جماعة إسلامية أخرى أخذت من الدين اسمه ومن الإسلام رسمه ولم تعمل بأصوله، ولم تطبق منهجه.

فالأولى: تمتعت بالأمن والاستقرار لأنها تقوم برسالتها فى وضوح من الأمر وأحكمت خطاها المطمئنة على درب النور وعلى الطريق المستقيم، ووجدت فى شريعة الله كل ما تحتاج إليه من قوانين تضبط السلوك والمعاملات، قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل إنها قوانين ربانية نتائجها مضمونة، وأما الثانية: فهى فى متهاتات الحياة تتقلب كل يوم مع أنظمة حديثة وقوانين مستوردة، هى من صنع العقل البشرى ووليدة أمشاج من تجارب عاشت على مسار الزمن بين مد وجزر وقبول ورفض، وبينما تمسك بنظام إذا بها يتبين لها منه الخطأ والقصور فتعدل عنه وتذهب إلى غيره ثم تتركه وهكذا. لا استقرار ولا ثبات. وطالما ارتفعت أصوات المصلحين وجلجلت نداءات الدعاة توجيهها إلى الحق ومقاومة للمنكر والشر ولكن بلا صدى. ولقد حاولت المدنية الحديثة أن تضع الضمير دافعا ووازعا وتصوره كذلك زعما وتلبيسا للأمور، وراح البعض مرددا: إنه يفعل كذا إرضاء لضميره. ومحاولة اتخاذ الضمير من ضوابط العمل الإنسانى، ومحاولة جعله هدفا أو غاية أو الصدور عما يمليه على الناس، كل ذلك نزوع إلى طريق الانحراف وإهدار لقيم نبيلة وطمس لمعالم لا يصل إليها صوت الضمير. وأحيانا كثيرة يتجاهلها ويجهلها ويتناساها وينساها، ومن جانب آخر فإن ما يملية الضمير الإنسانى ليس واحدا فى

كل الأمور وليس متفقا مع جميع البيئات وليس متحدا لدى جميع الأفراد والجماعات فالذين يحاولون أن يتخذوا إرضاء الضمير غاية وهدفا هم يفرون من الحقيقة الواقعة ومن الحق الثابت ومن قوانين الشريعة المستقرة التي لا تتغير إلى ما ليس ثابتا ولا مستقرا وهو الضمير، لأنه يتغير من بيئة لأخرى و يختلف من جماعة إلى جماعة أخرى بل وأحيانا يختلف بين الجماعة الواحدة من فرد لآخر وتحت ستار إرضاء الضمير قد تحدث المخالفة أو التفريط في الواجب ويحاول البعض إقناع الآخرين بأنه أرضى ضميره... بل وقد يقنع نفسه بأنه راضى الضمير. مبررا الأمور على حسب ما يحب ومفسرا ظواهر الأشياء على حسب هواه. وعندما يتخذ الإنسان الهوى طريقا للعقل - وحده - هاديا، ويبتعد عن هدى ربه يضل ضلالا مبينا، فلا هداية إلا هداية الله ولا حكم إلا لشريعة الله ولا وازع ولا رادع إلا من الإسلام، أما الذين يتخذون الضمير. ويسلمون حياتهم إلى هوى النفس أو حكم العقل، فهم بعيدون عن روح الإسلام. وعن جوهر العقيدة الصحيحة، يقول الله تعالى محذرا الاتجاه الحق في شريعته وهو الذى يجب اتباعه و البعد عن الهوى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتِي لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُم كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِشْوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مَن بَعْدَ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾^(١).

وأما عن وازع الدين، فإنه يصدر عن حكم الله، وفي رحابه يقدم الإنسان على العمل إرضاء لله وابتغاء مرضاته وطاعة له.. ووازع الدين تربيته العقيدة وتثمره وتؤصله الشريعة وتنميته وفي ظله يتم صلاح القلب الذى يترتب عليه صلاح كل عمل يقوم به الإنسان كما

(١) سورة الجاثية ١٨، ٢٣.

جاء الحديث... "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" وقد نطلق عليه اسم (الدينى)، ولذا فمن الواجب توضيح الفرق بينه وبين الضمير العام الذى سبق الكلام عنه وأنه يصدر عن الهوى، فالوازع الدينى أو ما يشار إليه بالضمير الدينى أحيانا هو الذى لا يصدر فى حسه وفعله إلا عن العقيدة والشريعة نابعا من القلب الذى هو محل النية و التصديق وتبرهن عليه الأعمال الصالحة التى مبعثها شريعة الله. ومن هنا كان للقلب الصالح السليم إحساسه الصادق وحاسته المرهفة التى أشار إليها الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى قوله: (استفت قلبك وإن أفنك الناس وأفتوك). وأشار أيضا فى قوله صلى الله عليه وسلم: (البر حسن الخلق والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)^(١).

ونحن إذا انتقلنا إلى واقع الحياة لنرى بعض الأمثلة والنماذج التطبيقية ندرك الفرق واضحا بين وازع الدين وبين ما يدعيه البعض من إرضاء الضمير. فى كثير من المجتمعات عند وقوع عقوبة من العقوبات أو تطبيق بعض القوانين يستطيع بعض الناس أن يفلت من القانون أو يحاول التهرب منه، خشية الوقوع تحت طائلة العقاب، وربما إذا نوقش إنسان أحدث مخالفة من المخالفات أو قصر فى واجب من الواجبات أجاب بأنه قد قام بما قام به عن اقتناع، وأنه قد أرضى بذلك ضميره، وقد لا يكون على حق ولكنه يحاول تبرير الموقف بما يتفق مع هواه وبما يتماشى مع ما يريد بغض النظر عن أى اعتبار آخر. فأين هذا الضمير من وازع الدين الذى كان يدفع البعض حين يرتكب ذنبا ليأخذ عقابه ويطلب إقامة الحد عليه. عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن ماعز ابن مالك الأسلمى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى . فلما كان من الغد أتاه فقال: يارسول الله إنى قد زنيت فردته الثانية، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه، فقال: أتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا؟ قالوا: ما نعلمه إلا وفى العقل من صالحينا فيما نرى، فاتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضا

(١) رواه مسلم.

فسأل عنه. فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم. قال: فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني ، وإنما ردها فلما كان الغد قالت: يا رسول الله لم تردني لعلك أن تردني كما رددت ماعزا فوالله إني لحبلى قال إما لا فاذهبي حتى تلدى ، فلما ولدت أتته بالصبي فى خرقة قالت هذا قد ولدته قال اذهبي فأرضعيه حتى تفتميه ، فلما فطمته أتته بالصبي فى يده مسرة خبز، فقالت: هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله ﷺ سبه إياها فقال: مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت^(١).

وحياة المجتمعات البشرية مليئة بنماذج تطبيقية وأمثلة واقعية يتضح من خلالها الفرق الشاسع بين سلطة الدين ووازع الدين وبين السلطة القانونية.

ومن الأمثلة كذلك القوانين الضريبية التى تسنها بعض البلاد، وبعض المجتمعات على كثير من الناس من أصحاب الأعمال والأموال، وعلى بعض المؤسسات والشركات والمصانع وغير ذلك.. مما يلتزم به بعض الأفراد وبعض الجماعات ولكننا كثيرا ما نلاحظ أن الكثير من الناس - أفرادا وجماعات - يتهربون من تلك الضرائب ويحاولون أن يتحايلوا على تلك القوانين وليس هناك من ضمير يدفع ولا رقيب من داخل النفس يحاسب.

فأين هذا من وازع الدين ومن سلطان الشريعة وأثرها ودافعها، هذا الوازع الدينى الذى يدفع الإنسان المسلم إلى أن يدفع زكاة ماله طيبة بها نفسه، مسارعا بإعطاء أصحاب الحقوق والمحتاجين، بل ومؤديا أكثر مما يجب عليه من المال صدقة زائدة وعطاء زائدا وإنفاقا فى سبيل الله. ففى جو القوانين الوضعية وفى مساندة الضمير الدنيوى المختلف يفتقد عنصر المراقبة فيستخفى الناس من بعضهم لئلا ينكر أحد عليهم

(١) رواه مسلم.

لكنهم لا يستخفون من الله كما قال تعالى ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (١٠٨) ﴿١﴾ وأما في ظل الوازع الديني فإن المؤمنين المخلصين يراقبون ربهم في كل أعمالهم سرا وعلانية لا يعنيه أن يراهم الناس لأنهم لا يراءون الناس وإنما يعنيهم رضا الله تعالى وحده، فهم يزيدون في أعمالهم وينفقون سرا ويبادرون إلى كل خير، ويسارعون إلى كل مكرمة شعارهم قوله تعالى ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (٢).



(١) سورة النساء ١٠٨.

(٢) سورة التوبة ١٠٥.

حقيقة الحياة

تختلف نظرة الناس إلى الحياة باختلاف مطامعهم فيها. وما يطمحون إليه من أموال أو أولاد، ومن منصب أو جاه، ومن قوة وعافية.

وتتوالى خطاهم في دروب الحياة وتشرب أعناقهم متطلعة وتشخص أبصارهم.. وهكذا كل ينظر إلى الحياة من زاويته الخاصة وتتعلق آماله بما ليس في يديه. ولا تتطلع إلى ما في يديه فإذا رأى غيره مثلا أكثر منه في جانب من جوانبها رغب أن يكون مثله وإذا صار مثله رغب في أن يكون هو أعظم من ذلك، وتظل تتوارد الآمال وتتضاعف دون انتهاء.

والطموح الأمين النزبه لا حرج فيه ما دامت طرقه مشروعة ووسائله كريمة.. أما حين يكون ضربا من الطمع الفاحش.. وتطلعا ممقوتا إلى ما فضل الله به بعض الناس على بعض، وبما قسمه بينهم في أمر معاشهم، فليس ذلك من الإسلام في شئ ولا أثر له في حقيقة الحياة إلا الحقد الذي يتولد منه وإلا الحسرة التي يورثها..

ومن هنا كانت تعاليم الإسلام في هذا الجانب حاسمة وواضحة ونظرة الإنسان إلى من هو أقل منه أجدى في الاعتبار وفي باب الشكر من نظرتة إلى من هو فوقه، فنظرتة إلى من هو فوقه تورثه الندم والتحسر وربما يتولد عنها الحقد واستقلال النعمة وعدم شكر المنعم.. يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه «لاتنظروا إلى من هو فوقكم وانظروا إلى من هو أسفل منكم فهو أجدر ألا تزددوا نعمة الله عليكم».

والحديث الشريف بهذا التوجيه الحكيم يعالج جانبا نفسيا هاما له أثره على حقيقة الحياة في كل بيئة وفي كل مجتمع وفي كل مجال من مجالات الحياة.

ولا يمكن لمن تعمق في مغزاه أن يشم منه من قريب أو من بعيد أن فيه دعوة لقعود الهمة أو الرضا بأدنى الأمور وأقل الحياة. كلا.. بل إن فيه توجيهها إلى ما يجب على الإنسان المسلم حيال ما أنعم الله تعالى به عليه من نعم سابغة.. وآلاء ظاهرة وباطنة:

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٤) ﴿١﴾ إن واجب الإنسان المسلم أن يقدر النعم التي أنعم الله بها عليه وأن يشكر ربه عليها آناء الليل وأطراف النهار، وأولها وأجلها نعمة الإسلام وكفى بها نعمة. ولقد جاء الأمر الإلهي للجماعة المؤمنة واضحا وكاشفا لهم ما تكون به حقيقة الحياة وما يسعدهم وما يحييهم..

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٣٤) ﴿٢﴾ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٣٥) ﴿٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَنْخَظَفَكُمْ النَّاسُ فَعَاوَدْكُمْ وَأَيَّدْكُمْ بِضِرْفِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣٦) ﴿٤﴾ ففي هذه الآيات نادى الله تعالى المؤمنين موجها أمره إليهم بالاستجابة لله وللرسول، وذلك بالطاعة فيجب على الذين آمنوا أن يطيعوا الله والرسول، ونلاحظ في التعبير القرآني الحكيم أنه أفرد الضمير في قوله إذا دعاكم ولم يأت بضمير التثنية الذي يفيد دعوة الله ودعوة الرسول ﷺ إشارة إلى أن طاعة الله في طاعة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٣)، إنه أمر بالاستجابة والطاعة إن دعاهم لما يحييهم، فإن في الدين حياة النفوس. وحياة القلوب فإن القلب يحيا بمعرفة أمور دينه ويموت بالجهل بها.

وقيل: المراد القرآن الكريم فإن فيه النجاة والبقاء والحياة، ثم يقول سبحانه: ﴿وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (٤). وقال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر. وبين الكافر وبين الإيمان فهو سبحانه يطع على ما تكنه القلوب.

(١) سورة إبراهيم ٣٤.

(٢) سورة الأنفال ٢٤، ٢٥.

(٣) سورة النساء ٨٠.

(٤) سورة الأنفال ٢٤.

وفى هذه الآية الكريمة حض وتوجيه من الله سبحانه إلى أن يسارعوا إلى إخلاص القلوب وتصفيتها.. قبل أن يحول الله بين الإنسان وبين قلبه بالموت.
أو أن الآيه تصوير لقدرة الله تعالى على العبد وعلى قلبه فيحول بين العبد وبين الكفر إن أراد له السعادة ويحول بينه وبين الإيمان إن أراد له الشقاء..
وأنه إليه تحشرون.. فيجازى كل إنسان بما قدمته يده إن خيرا فخير وإن شرا فشر
وفيما رواه الإمام أحمد بسنده أن رسول الله ﷺ قال: (إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفها كيف شاء، ثم قال ﷺ «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك»..

ومن دعاء رسول الله ﷺ الذى كان يكثر منه (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) ولطالما ذكر القرآن الكريم الأفراد والجماعات بنعم الله عليهم، فهو يذكرهم بما كانوا عليه ليكون فى هذا زيادة اليقين بخير ما يدعوهم إليه وبما فيه حياتهم وسعادتهم فبعد أن ناداهم وأمرهم أن يستجيبوا لله ولرسوله وبعد أن حذرهم وأنذرهم من الوقوع فى الفتنة أخذ يذكرهم بما كانوا عليه من قله فى العدد وضعف فى الأرض وخوف من العدو .

فقد كانوا فى بادئ الأمر قلة مستضعفة يخافون أن يتخطفهم الناس من كفار قريش، أو من عداهم، فتداركتهم عناية ربهم فأواهم إلى المدينة فتحصنوا عن أعدائهم وأيدهم بنصر من عنده وأمدهم بالملائكة ورزقهم من الطيبات عن طريق الغنائم رجاء أن يشكروا ربهم الذى وهبهم هذه النعم التى لا تحصى.

وهكذا تتسابق المبادئ الإسلاميه الراشدة موجهة أفراد الأمة وجماعاتها إلى حقيقة الحياة..

إنها توجههم إلى حقيقتها بأساليب محكمة وأمثلة قوية واقعية راسمة لهم منهج الحياة التى يسعد فيها الفرد والمجتمع، إنها حياة تقوم حقيقتها أولا وقبل كل شئ

على الإيمان والعمل ، وعلى اليقين المطلق بواهب النعم وخالق الكون ، ومن منطلق هذا
اليقين يتجه أبناء الحياة إلى كل دروبها وليس على عينهم عصابة . ولا في قلبهم غشاوة
بل يتجهون مخلصين آمنين..



إنما الدنيا لأربعة نفر

المسلم كيس فطن يدرك حقيقة الحياة ويعرف موقعه منها ثم يصرف أموره وأحواله بما يتواءم مع شريعة الله، ولا يختلف مع الدين .. ولا يتصادم مع نظم الحياة الجادة المستقيمة.

والإنسان المسلم فى هذه الحياة لا يعيش لنفسه فقط ولكنه يعيش متعاوناً مع الغير و الغير متعاون معه فهو اجتماعى بطبعه.

والناس فى هذه الحياة يحتاج بعضهم إلى بعض، ومن قصور التفكير أن يظن البعض أن غيره المحتاج إليه وأنه غير محتاج إلى أحد .

كيف ؟ وطبيعة الحياة أخذ وعطاء، والتكوين الإلهى للجماعات البشرية على ظهر هذه الحياة أنهم درجات بعضهم فوق بعض ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ .
وهذه الحكمة الإلهية بها تنهض الجماعات، ويكدح الناس فى الحياة وتعمر بهم الأرض.

وكما أن الإنسان محتاج إلى عمل يكسب من ورائه ومحتاج إلى مال ينفق منه ومحتاج إلى صاحب العمل، فإن صاحب المال محتاج لهذا العامل، ولولا هذا العامل ما كان لصاحب العمل ماله ولا تحصيل ربحه، ولا إدارة عمله الذى يدر عليه هذا الربح .

بل إن الإنسان كثيراً ما تعترضه مواقف يحتاج فيها إلى أبسط الأعمال وأقل المهن التى لا ينظر الناس إليها بعين الإكبار والتقدير بل ربما ينظرون إلى بعض الأعمال البسيطة والمهن غير البراقة نظرة غير كريمة .

ولكنهم فى الحقيقة إذا راجعوا أنفسهم وقت حاجاتهم الملحة إلى هذه المهن وتلك الأعمال عرفوا قيمتها وأدركوا أهميتها، وعلى كل إنسان أن يدرك دوره فى الحياة والطريقة المثلى لتسيير دنياه .

وضروب الناس متفاوتة فى الدنيا وحظوظهم متنوعة فمنهم من أوتى حظاً من العلم والمال :

بالعلم والمال يبني الناس ملكهمو لم يبن ملك على جهل وإقلال

ومن الناس من أوتى علما ولم يؤت مالا . ومنهم من أوتى مالا ولم يؤت علما . ومنهم من لم يؤت مالا ولا علما ، إنهم أربعة نفر.. وقد جاء تفصيلهم فى السنة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . ففيما أخرجه الترمذى : عن أبى كبشة الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة أقسم عليهن . وأحدثكم حديثا فاحفظوه : ما نقص مال من صدقة ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر) ..

وزاد فى رواية . (وما تواضع عبد الله إلا رفعه الله . وأحدثكم حديثا فاحفظوه ، إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقى فى ماله ربه ويصل به رحمه ويعلم أن لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل . وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول : لو أن لى مالا لعملت عمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو يخبط فى ماله بغير علم ، لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله حقا ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما ، يقول : لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته ووزرها سواء) ..

والناس فى حياتهم أحد فريقين :

فريق : هم طلاب دنيا يجعلونها همهم ومنتهى مقصدهم فهم يبحثون عنها فى كل الدروب ويجرون وراءها فى كل اتجاه ، وربما كانوا عنها بعيدين وكانت بعيدة ، وكلما جروا خلفها جرت هى أمامهم فلا يلحقونها ولا ينالون منها إلا ما قسمه الله لهم ، وفريق آخر هم طلاب الآخرة جعلوها همهم وشغلهم الشاغل حتى وهم فى أعمالهم الدنيوية جعلوها خالصة نقية لم تشبها شائبة ما ، أولئك أغنى الله قلوبهم وأنتهم الدنيا راغمة .

عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : (من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة . ومن كانت الدنيا همه جعل الله

فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له فلا يمسى إلا فقيراً ولا يصبح إلا فقيراً، وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه، بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع^(١)

وقال عمر رضى الله عنه: ما كانت الدنيا هم رجل إلا لزم قلبه أربع خصال: فقر لا يدرك غناه، وهم لا ينقضى مداه، وشغل لا ينفذ أوله، وأمل لا يبلغ منتهاه.

وتلك حقيقة لها من واقع الحياة أمثلة كثيرة ونماذج وافرة فنحن نشاهد من كانت الدنيا همه فى فقر دائم.. وربما تتساءل - قارئى العزيز - كيف يتأتى هذا وهو غنى؟ وكيف يكون فى فقر وهو ذو مال؟ ولكنك حين تلقى نظرة عابرة على صفحة المجتمعات الإنسانية ترى من الناس من يريد أن يضيف إلى ماله أموالاً ويحرص على عدم نقصانها ويجتهد فى زيادتها. من أجل هذا فهو لا ينفق منها وإنما يكثرها ولا يتمتع بها وإنما يرضن بها على نفسه وأهله ورحمه والفقراء والمحتاجين فهو فى فقر بيد أن المال بين يديه.

وأما الهم الذى لا ينقضى فهو فى شغل شاغل وراء جمع ثروته وما يخشى أن يضيع منها وما يجب أن يضاف إليها لتنمو، وما تشابك به مصالحه مع مشاغله ومتاعبه وهكذا.. فهو فى شغل لا ينفذ ووراء أمل لا يبلغ مداه لأن طالب الدنيا لا يشبع، ولو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى أن يكون له الثانى ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب. تلك حقيقة لا يمارى فيها أولو الألباب. ولكن ليس معنى هذا أن الإسلام لا يدعو إلى السعى والعمل. لا.. بل إن الإسلام هو دين العمل والسعى والتمتع بطيبات الحياة الدنيا.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قلنا يا رسول الله مالنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا فى الدنيا وكانت الآخرة كأنها رأى عين، وإذا خرجنا من عندك فعافسنا أهلينا وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا فقال عليه الصلاة والسلام: (لو تدومون على حالكم عندى لزارتكم الملائكة فى بيوتكم، ولصافحتكم فى طرقكم، ولو لم تذبوا لذهب الله

(١) أخرجه الترمذى.

بكم ولجاء بخلق يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم. ساعة وساعة) والحديث يدعو آخره إلى التوبة وليس إلى الاستهانة بالذنب، فليس معنى، لو لم تذبوا.. فتح طريق الذنب لا، وإنما المراد فتح باب التوبة، وإعطاء الفرصة والأمل لمن ضلوا أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يتوبوا إلى الله، وأن يكونوا على اتصال دائم به سبحانه وتعالى. هذا مع سعيهم في الحياة وكدهم وجدهم وتعبههم ونصبهم فهم يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدا ويعملون لآخرتهم كأنهم يموتون غدا.

ومن كلام على بن أبي طالب رضى الله عنه، لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الأمل ويقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها بعمل الراغبين. إن أعطى منها لم يشبع وإن منع لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتى ويتمنى الزيادة فيما بقى. ينهى ولا ينتهى ويأمر بما لا يأتى يحب الصالحين ولا يعمل أعمالهم ويبغض المسيئين وهو منهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، ويقيم على ما يكره الموت له، إن سقم ظل نادما وإن صح أمن لاهيا، يعجب نفسه إذا عوفى ويقنط إذا ابتلى، تغلبه نفسه على ما يظن ولا يغلبها على ما يستيقن. ولا يثق من الرزق بما ضمن له ولا يعمل من العمل بما فرض عليه إن استغنى بطر وفتن، وإن افتقر قنط وحزن. هـ. تلك طبيعة الإنسان وهي في حاجة دائمة إلى إصلاح وتقويم وتهذيب وصقل وتسليم بالإيمان بالله واليوم الآخر.



مقاومة الإسلام للمخاوف والأوهام

حرص الإسلام على تحرير الإنسان المسلم، لئلا تستبد به الأباطيل والترهات، فليس لأحد أن يخضع إلا لله فهو صاحب الخلق والتدبير، وهو رب السموات والأرض وبيده ملكوت كل شيء، وهو سبحانه الذى يجير ولا يجار عليه.. فكيف يذهب البعض إلى عبادة غيره؟ قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِزُوكَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾^(١).

ولقد جاءت تعاليم الإسلام فى غاية اليسر، وفى منتهى الوضوح، وخلصت الإنسان من العادات السيئة التى تشوه حياته الدينية، كما خلصته من الأباطيل والأوهام التى تراكمت على العقل البشرى ضاربة بجذورها فى النفس منذ أيام الجاهلية المظلمة، التى تخبط المجتمع الوثنى بين دروبها الضيقة وأحوالها الخائفة.

وحمل الإسلام على الأوهام والضلالات وتتبعها فى كل منعطفاتها وزواياها ليحرر الضمير الإنسانى من كل الأساطير.

ونقى الإسلام عقيدة الإنسان المسلم من الكهانة وغيرها من المعتقدات الباطلة والعادات السيئة التى تسربت منها الخرافات بشكل فاضح، جعل النفس الإنسانية ضعيفة لا تقوى على شيء، وتظل حائرة بين ضباب الوهم والخيال. تقدم رجالا وتؤخر أخرى. وكما دعا الإسلام إلى تحرير النفس الإنسانية من الخضوع لغير الله وتحريرها من العادات السيئة والتقاليد المردولة والخرافات المتفشية، فإنه دعا المسلم إلى تحرير نفسه من الخوف والقلق منتبعا أسباب الخوف ودواعيه ومجالاته ودوافعه ومبعث هذا الخوف قد يكون حرصا على الحياة أو قلقا على طلب الرزق أو طلبا لجاه أو منصب فيظل شبح

(١) سورة المؤمنون ٨٤ - ٨٩.

الخوف يطارد الإنسان فى خطى حائرة على الإقدام والإحجام، ويدفعه القلق على طلب الرزق إلى الغش والرشوة والاختلاس، فتستعبده المادة ويدفعه التطلع إلى الجاه أو المنصب إلى المداهنة والزلفى إلى الناس.

ونقى الإسلام حياة الناس من كل الأوهام والخرافات وأبان أن طلب الحياة أو الرزق أو المنصب، لا يكون من مخلوق وإنما يكون من الخالق الذى بيده ملكوت كل شئ، وهو على كل شئ قدير.

فأما بالنسبة للحياة، فقد جعل الله لكل نفس ميقات - أجل - لا تستأخر عنه ساعة، ولا تستقدم عنه أخرى، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأً مُّوجَّلاً ﴾^(١) فإذا جاء ميعاد هذا الأجل فلا يدفعه حرص، ولا يعنى عنه حذر ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ ﴾^(٢) وأما بالنسبة للرزق، فقد تكفل الله به، وهو الرزاق ذو القوة المتين، قال الله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾^(٣) والرزق محدد، قدره الله وحدده وقد أقسم الله تعالى على أنه حق واقع حيث قال سبحانه: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾^(٤) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾^(٥). وناهض الإسلام المزاعم الباطلة كاعتقاد أن للمرض عدوى بطبعه من غير فعل الله، وكالطير حيث كانوا ينفرون الطيور والظباء، فإن اتجهت يميناً مضوا فى حوائجهم، وإن اتجهت يساراً رجعوا وتشاءموا، ومن ذلك تأخيرهم تحريم المحرم إلى صفر وهو النسئ، ورفض الإسلام كل ذلك، قال عليه الصلاة والسلام: (لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هامة)^(٥) كما طهر الإسلام العقيدة من الكهانة، وما يشبهها - حديثاً - كضرب الحصى والرمل وقراءة الفنجان وغير ذلك من الاعتقادات الباطلة.

(١) سورة آل عمران ١٤٥.

(٢) سورة النساء ٧٨.

(٣) سورة هود ٦.

(٤) سورة الذاريات ٢٢، ٢٣.

(٥) رواه مسلم.

وقد وضع الله تعالى أنه بيده وحده الأمر كله من خير أو شر ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾^(١) وإذا أراد الله نصره إنسان فلا يمكن أن يغلب وإن أراد خذلانه فلا يتأتى لأحد أن ينصره ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٢) هذا وإن حب الدنيا، والتعلق بأذيالها والخوف على الحياة أو الرزق، هذه الأمور تؤدي بالإنسان إلى الضعف وضياع الشخصية، وقد نبه رسول الله ﷺ على ذلك حين قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»^(٣).



(١) سورة يونس (١٠٧).

(٢) سورة آل عمران (١٦٠).

(٣) رواه أحمد وأبو داود.

من مسؤوليات الإنسان المسلم

قدر الإسلام قيمة الوقت ونبه إلى أهميته ، والمتتبع للنظم الإسلامية يدرك إلى أى مدى كان حفاظ الإسلام على الوقت ، وكانت حيظته البالغة . بحيث لا يتعرض للتهديد أو الضياع ، فقد حدد الإسلام مواقيت زمنية لعباداته وكلها تدل على النظام المحكم الدقيق وعلى احترام الوقت وتنسيق فتراته ، فالفروض الخمسة أوقاتها من الفجر إلى الظهر إلى العصر إلى المغرب إلى العشاء. وكلها أوقات تحددت بالوحى الإلهي ولها بداية ونهاية بحيث إذا انتهى وقت من هذه الأوقات لا تقع العبادة فيها أداء . وإنما تكون قضاء لأن وقتها المحدد لها شرعا قد فات.

وللصيام وقته الزمنى العام المحدد ووقته اليومى الخاص المحدد من الفجر إلى غروب الشمس . وللزكاة وقتها كذلك ﴿وَأْتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ ولزكاة المال وقتها عندما يحول على المال الحول وهكذا.. ولفريضة الحج ميقاتها الزمنى المحدد بشوال وذى القعدة وذى الحجة . والإنسان المسلم مسئول عن الوقت مسؤوليته عن كل شئ آخر ، ومحاسب عليه ، كأى نعمة أخرى من النعم الإلهية التى منحها الله تعالى إياه ، ففيما رواه الترمذى : يقول رسول الله ﷺ : «لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل فيه».

إن العمر الذى يعيشه الإنسان على ظهر هذه الحياة مسئول عنه ، إنه مسئول عن أيامه وأعوامه وعن سائر أوقاته فيما أفنى هذه الأوقات ، هل أفناها فى الطاعة أم فى المعصية ، هل أفناها فى العمل الجاد ، والسعى على المعاش وما ينفعه وينفع الناس والمجتمع أم لا . إن كثيرا من الناس إذا ذهبوا إلى أعمالهم أو مصالحهم يؤدون بعض العمل ، ويتوقفون عن أعمال كثيرة مطلوب منهم أدائها وتوقفهم هذا وإهمالهم ، قد يكون بسبب ، وقد يكون بلا سبب . فمنهم من يتوقف عن العمل الواجب عليه فى مصلحته - موقع عمله - بسبب أنه غير منسجم مع رئيسه فى العمل أو أنه على غير

وفاق مع بعض رفاقه وزملائه. فإذا ما ذهب إليه بعض أصحاب الحاجات والمصالح الذين ينتظرون إنجازها لم يجبههم الإجابة الشافية وقد يرجئهم إلى الغد أو ما بعده. وقد يحيلهم إلى غيره.. وهكذا من الأساليب والحيل التي يصرف بها صاحب المصلحة أو الحاجة دون جدوى، وهذا الضرب من الناس يقتل وقتا يتقاضى عليه أجرا في الدنيا وهذا الأجر أو ذلك المال الذي يتقاضاه غير حلال، وليس مالا طيبا بل إنه كمن يأكل أموال الناس بالباطل وهو إن خفى أمره على العباد فلا يخفى على رب العباد الذي يعلم السر وأخفى... والذي يعلم ما تبدون وما تكتمون.

وليس عدم انسجامه أو وفاقه مع الآخرين مبررا له لأن يؤخر عمله، ويهمل في واجبه، ويضيع وقتا ثميناً من الحياة. وهناك نوع آخر من الناس يقتل الوقت وينصرف عن عمل الواجب. بسبب أنه يسعى لمصلحة خاصة. أو أنه كان في مهمة خاصة به. ومثل هذا النوع وإن كان قد شغل الوقت بعمل إلا أنه عمل في غير وقته المشروع له، فلا يصح أن تطغى المصالح الشخصية على المصلحة العامة أو يشغل وقت المصلحة العامة لمصلحة شخصية. ففي هذا ضياع لحقوق المجتمع وحقوق غيره من الناس، وهذا الضرب من الناس، يمكن أن نسميه (سارق الوقت) أو نسميه: (المختلس المقنع) نعم إنه سارق الوقت، والسرقه ليست خاصة بالمال أو المتاع ولكنها تشمل الوقت كذلك، لأنه اختلس من أوقات العمل، ومن وقت المصلحة العامة، واستغل ذلك لنفسه وشخصه، ومثله كمثّل السارق والمختلس تماما بتمام. وهناك نوع آخر من الناس يتوقف عن عمله ويهمله لا لسبب من الأسباب إلا الكسل والخمول، والركون إلى الراحة والدعة، ومحاولة قضاء وقت العمل في احتساء ما تشتهيئه نفسه من المشروبات أو مطالعة ما يستهويه من الصحف والمجلات ومحادثه رفاق العمل في أحاديث شتى بغية التسلية، وقضاء الوقت حتى يحين موعد الانصراف الرسمي من العمل.

وهذا الضرب من الناس ظالم لنفسه وإخوانه ومجتمعه ومعتد أثيم. إنه لا يراقب ربه في عمله ولا يراقبه في المال الذي يتقاضاه، وكيف له أن يستحل أخذ شئ لم يؤد له مقابلا من العمل. إن الإسلام يرفض كل هذه الأنواع ويدعو إلى محاربة الكسل والإهمال

والنفعية. إن أصحاب الأنواع الثلاثة السابقة: استتبت بهم ثلاث آفات: الآفة الأولى: هي الإهمال، والآفة الثانية: هي المصلحة الشخصية وطغيانها على المصلحة العامة، والآفة الثالثة: الكسل والخمول.. ونحن إذا ألقينا النظر على تعاليم الإسلام نجد أنه قد حارب تلك الآفات، وحذر منها أشد التحذير، ففيها ضياع للوقت دون فائدة، وقتل للزمان دون جدوى. فقد حارب الإسلام (الإهمال) وأمر بإتقان العمل والإخلاص فيه، وإحسانه وتجويده، وفي الحديث: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه) وحارب الإسلام طغيان المصلحة الشخصية على المصلحة العامة كما حارب الكسل والخمول، ودعا إلى العمل الجاد، وإلى النشاط وحسن العمل لأن الله مطلع وراقب وهو سبحانه القائل ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).



(١) سورة التوبة ١٠٥.

الإنسان المسلم فى بوتقة الاختبارات

من أهم الملامح لشخصية المسلم الثبات فى العسر وفى اليسر، إن المسلم شاكراً فى السراء صابراً فى الضراء، يبرهن على صدق عقيدته بالإنفاق فى الحالين: يقول الله تعالى فى وصف المتقين: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾^(١) إن شخصية المسلم لا تهتز بالعسر ولا تقنط بالضراء، كما أنها لا تضل ولا تطغى باليسر أو السراء وإنما هى فى الموقفين سواء، وهذا شأن المسلم الذى قويت عقيدته وآتت أكلها وثمارها، إنه شاكراً فى السراء صابراً فى الضراء قال ﷺ «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

إن للمسلم خطاه الثابتة التى يسير بها ومعها يقين يضىء له الطريق وثقة لمشاهدها العديدة حازمة حاسمة لا يشده بريقها ولا يخدعه زخرفها.

إن حياة المسلم متصلة الحلقات من الابتلاءات والاختبارات، فمنها ما يكون ابتلاءً بالنعمة ومنها ما يكون بالنعمة وتلك سنة الله فى خلقه، والعزائم المخلصة ذات المعادن الأصيلة حين تنصهر فى بوتقة الابتلاء بالبأساء والضراء تخرج وهى أشد عزيمة وأقوى إرادة وأكثر بريقاً ولمعانا وعندئذ يأتيتها نصر الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾^(٢).. وموقف السلف من محن الحياة وابتلائها موقف الحريص على عقيدته المؤمن بقضاء ربه، الواثق من الفرج والثبوتية: يقول أحدهم: ما أصبت فى دنياى بمصيبة إلا رأيت لله فيها ثلاث نعم، أنها لم تكن فى دينى وأنها لم تكن أكبر منها وأننى أرجو ثواب الله عليها.

أما شخصية الإنسان التى لم تتهذب بالإسلام ولم تصقل بمبادئه القويمه فهى فى تطلع

(١) سورة آل عمران ١٣٤.

(٢) سورة البقرة ٢١٤.

إلى فضل الله ورجاء ملح لنعمته إذا نزل الضر، فإذا رفعه الله، وأحاطت النعمة جوانب الحياة فإنه ينسى ما كان فيه ولا يقيم حق الله في نعمته، ولا يؤدي الشكر الواجب عليه حيالها. إنه في حال النعمة ينسى حق الله وحق العباد، لقد خيمت على شخصيته الأنانية، وملأت الأثرة أقطار نفسه. فلا ينظر للحياة إلا بمنظار المنفعة الخاصة، يدور معها حيث يدور، ويبحث عنها في كل مكان لا يعنيه شيء سوى منفعته، في إطارها الضيق يظل في وضع لا يستقر.

إن الطبيعة البشرية في صراعها الرهيب وفي رغبتها الجامحة لمتطلبات حياتها تظل خطاها تلح فوق الدروب المتشابكة بغية الوصول إلى أملها وهدفها وتضع على مفترق الطرق أمنيات رطبة خضراء لو تحقق ما تصبو إليه النفس أو جاء ما يهف إليه الإنسان ملأ ببره كل المسالك فكان وصولا للرحم بارا بالمحتاجين سباقا للبذل في الملمات ساعيا لقضاء مصالح الناس محبا ودودا لكل القلوب. لكنه عندما يتحقق رجاءه ويستجاب دعاؤه وتسير حياته متدفقة بالنعمة والخير ينسى ما اعتزم عليه ولا يأبه بمن مد يده إليه، ومن هنا تتعالى نداءات الإسلام موجهة إلى شكر الله الذي أنعم ودافعة إلى النظر بعين الاعتبار إلى تلك النعم التي لا تحصى. وتتوالى تعاليم الإسلام في إرساء قيم الحق وصقل الشخصية الإسلامية وتهذيبها وعلاجها من ذلك الضعف الروحي والتمزق النفسي. وذلك بالصبر والعمل الصالح والانطلاق من قاعدة العقيدة الصحيحة التي تشرق الحياة منها رخاء آمنة.

وإذا كان الصبر وعمل الصالحات من وسائل صقل النفس وتربية الشخصية فإن هناك علاجا آخر لروحه ولقاء طيبا يتم فيه تخلص الإنسان من هلعه وجزعه، ومن جرده ومنعه ذلك هو لقاء الله تعالى في الصلاة التي تتكرر كل يوم مذكرة وموجهة في كل ركن من أركانها بأن الله أكبر من كل شيء، وكذلك في البذل والإنفاق، وفي التصديق بيوم الدين والخوف من الله والعفة ومراعاة الأمانة والقيام بالشهادة.

وكل هذه الأمور يلفت القرآن النظر والقلب إليها لتقويم الشخصية وتنقيتها من الهلع والجزع والجحود. إن شخصية المسلم الحقيقية تملئ عليه أن يتعرف على ربه في وقت

الرخاء كما يتعرف عليه في وقت الشدة، ومن كان كذلك فهو صادق الإيمان يستحق تيسير الله له وتفريجه لهماومه كما قال الرسول ﷺ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة .. وفتح الله سبحانه أبواب رحمته ونادى عباده إليها وبين أنه قريب منهم يجيب دعاءهم ويحقق رجاءهم وعليهم أن يستجيبوا لما يحييهم ويقوموا بأصل الإيمان الحق.

□□□

تهذيب الإسلام للنفس الإنسانية

من أهم الملامح الواضحة في حياة المجتمع المسلم .. أنه يعتنق الحق ويسير على ضوئه ويعمل في دائرته. دون أن يكون هناك أى تأثير خارجي عليه ، لأنه يؤمن بأن جزاءه منوط بعمله فأحسانه لنفسه وإساءته لها.

وقد غرس الإسلام في نفوس الأفراد والجماعات أصول الحق ليتبعوها ﴿ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنَكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾^(١).

وأثار القرآن الكريم الطريق أمام المسلم، مبينا له أنه وحده الذى ينال مثوبة هدايته، وأنه وحده الذى ينال جزاء ضلالتة فلا ينجى اهتداؤه غيره، ولا يردى ضلاله سواه وكل نفس وما حملت من وزرها، فلا تحمل وزر نفس أخرى فلكل استقلاله وجزاؤه على حدة. قال الله سبحانه: ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۗ وَلَا نُزِرُ وَأَزِرُّ ۗ وَزَرَ أُخْرَىٰ ﴾^(٢).

وقد نعى القرآن على أولئك الذين وقعوا أسرى العادة والإلف تجافيتهم عن الحق . وضرب مثلهم بمن ينادى على حيوان يسمع الصوت ولا يفهم له معنى فهم فى انهماكهم فى التقليد الأعمى ووقوعهم فريسة التبعية البلهاء كمثل الصم البكم . قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا أَوْ لَوْ كُنَّا ءِآبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾^(٣) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾^(٣).

وهذا الصنف من الناس لم يعط نفسه استقلالها ولم يمنحها حريتها فى البحث عن الحق ، وإنما حبسها بين أسوار التقاليد الموروثة، توثقها العادات البالية وتمتحن كرامتها وإنسانيتها وقد تابع الإسلام نفسية المسلم فى سلوكها بالتقويم والتهذيب لئلا تتأرجح بين

(١) سورة الإسراء (٧).

(٢) سورة الإسراء (١٥).

(٣) سورة البقرة (١٧٠ ، ١٧١).

مد الحياة وجزرها فتتدهور قواها المعنوية تابعة كل ناعق ومنادية كل إنسان، أنا معك محسنا كان أو ظلما، روى الإمام الترمذى بسنده عن حذيفه قال: قال رسول الله ﷺ، «لا تكونوا إمعة تقولون، إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا»^(١).

فإذا كان الله تعالى قد أعد المسلم إعدادا حقا، وهيأه لأسباب الحق والفلاح، بما ألهمه من رؤية واضحة للخير حتى يتبعه، وللشر حتى ينأى عنه، فليس للمسلم أن يكون إمعة، ولم تعد له حجة في تعطيل ما أودعه الله في حسه ووجدانه.

ككيف به يقف على مفترق الطرق يميل مع رياح الحياة حيث تميل، لقد سوى الحق النفس وألهمها فجورها وتقواها. قال تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾^(٢) وفي استقلال النفس الإنسانية حماية لمقومات الحق والخير التي أودعها الله في الإنسان. فلا يتأثر بالعوامل الخارجية و المؤثرات المحيطة به، فإذا كان قاضيا أو شاهدا أو مدرسا أو قائما بالإصلاح بين الناس أو مقوما لأعمال البعض أو نحو ذلك من مسالك الحياة التي يرتادها فإن عليه أن ينظر إلى الحق بغض النظر عن أى عامل آخر أو أى مؤثر خارجى. فإذا قام لحكم بين الناس أو القضاء فيهم أو طلب منه أداء شهادة بالحق أو فصل فى خصومة فعلية أن يتحرى جانب الحق والصواب فلا تؤثر عليه صلة قرابة أو نسب أو غير ذلك، قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾^(٣).

وكما دعا الإسلام إلى المحافظة على قول العدل دون تأثر بصلة القرابة أو ما يدعو إلى الانحياز فكذلك حذر من أن تكون الكراهية والبغضاء من دواعى الانحراف عن الحق والعد فقال سبحانه: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا

(١) رواه الترمذى.

(٢) سورة الشمس ٧ - ١٠.

(٣) سورة الأنعام ١٥٢.

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَلَّا تَعْدِلُوْٓا اَعْدِلُوْٓا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى وَاَتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ
خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿٨﴾^(١).

وإن السلوك الإسلامى يتنافى مع الظلم، فيقيم المسلم العدل ولو على نفسه أو أقرب
الناس إليه. ويتنافى مع الباطل فيقول الحق ولو على نفسه، ويعدل مع العدو كما يعدل مع
القريب والحبیب فهو لا تحکمة تبعیة تهدم شخصیة، ولا یجور على عقیدته الهوى ولا
تتسرب المحاباة إلى داخله إنه یحیا بین الناس قواما بالقسط شاهدا لله ولو على نفسه أو
والديه أو أقربائه. قال الله تعالى: ﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا كُوْنُوْا قَوّٰمِيْنَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ
عَلٰٓى اَنْفُسِكُمْ اَوْ اَوْلَادِيْنَ وَاَقْرَبِيْنَ اِنْ يَكُنْ غَنِيًّا اَوْ فَقِيْرًا فَاَللّٰهُ اَوْلٰى بِهِمَّا۟ فَلَا تَتَّبِعُوْا الْهَوٰى
اَنْ تَعْدِلُوْٓا وَاِنْ تَلَوْٓا اَوْ تَعْرَضُوْٓا فَاِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرًا ﴿١٣٥﴾^(٢).

ويصون الإسلام الأمة الإسلامية من التأثير بخصائص الغير وأفعاله التى لا تتفق مع
روح الإسلام والتى تتنافى مع فضائله، وأما الاستبداد بالرأى أو التماذى فى الخطأ فليس
فيه من قوة الشخصية واستقلالها أدنى علاقة، بل إن ذلك يتنافى معها تنافيا تاما. فإن
الرجوع إلى الحق فضيلة. ولا يوصف من يرجع للحق بأنه فاقد الشخصية بل إنه قوى
الشخصية فى ضبط النفس، وكبح جماحها والاتجاه بها صوب الحق فلا يتجمد عند الخطأ
بل يفتىء إلى الحق أينما كان.

وكما أن استقلال الشخصية لا يتنافى مع الرجوع للحق فإنه كذلك لا يتنافى مع التعاون
ومشاركة الأمة الإسلاميه. فالمراد باستقلال الشخصية ألا يذوب سلوك الفرد فى سلوك آخر
ولا تذوب الجماعة فى جماعة أخرى فلكل إنسان مقوماته وقدراته الخاصة، وحين يسلب
هذه المقومات فلا تكون له حريته ورغبته المستقيمة المخلصة. فإنه يقوم حين يقوم بالعمل
وهو مسوق إليه ومكره عليه، فلا يستشعر المتعة به ولا يتذوق الرغبة الدافعة إلى إتقانه.
ومن ثم يفقد روح النشاط والحيوية، ولا يقبل على العمل بجد وفاعلية، بل يؤدي عمله
وهو مكره ومتبرم.

(١) سورة المائدة (٨).

(٢) سورة النساء (١٣٥).

ولو ترك الإنسان بلا توجيه شديد وأطلق لنفسه العنان دون رعاية وضبط، ومن غير حدود فإن ذلك شر مستطير، لما يترتب على سلوكه بلا مقاييس ما يترتب من إطلاق نوازعه النفسية. فتنمو الأنانية والأثرة. ويتجاوز الحدود بلا رادع أو ضابط. ومن أجل هذا كله أرسى القرآن للشخصية الإسلامية معالم محددة لا تتعدها، بحيث يجد المسلم ثواب عمله الصالح، ويتحمل تبعه إساءته فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾^(١).. هذا بالنسبة للفرد فشخصيته محوطة بدائرة الحق والعمل الصالح.

وأما بالنسبة لعلاقته مع الجماعة الإسلامية وعلاقة الناس مع بعضهم فإن تلك العلاقات مع ما وفره الإسلام لها من الاحتفاظ بالمقومات بحيث لا تذوب فى الآخرين. فإنه لم يمنع الإنسان أو الجماعة من التعاون والمشاركة، بل أمر بذلك إذكاء لروح التعاون وإبقاء لوحدة الأمة وإثراء لها بالعمل المشترك والتضافر المثمر، وذلك كله يتم فى إطار البر والتقوى وبعيدا عن الاثم والعدوان كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٢)..



(١) سورة فصلت ٤٦.

(٢) سورة المائدة ٢.